قصة موسى –عليه السلام– مع فرعون:
اللغة الحاكية

د. إيهاب محمد أحمد حسن

د. إيهاب محمد أحمد حسن

- أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها– كلية العلوم الإسلامية والعربية– جامعة وادي النيل السودان.
- حصل على درجة الماجستير من قسم اللغة العربية –كلية الآداب – جامعة الخرطوم بأطروحته : "التكرار في القرآن الكريم".
- حصل على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية –كلية الآداب – جامعة الخرطوم بأطروحته: "نشأة المصطلحات البلاغية وتطورها حتى عصر السكاكي".

مستخلص البحث

يرتكز هذا البحث على فكرتين:

الفكرة الأولى: أن القرآن هو المعجزة الوحيدة التي اتخذت شكل اللغة من بين كافة معجزات الأنبياء، واللغة لا تبلى، وههنا في سر هذا الخلود تكمن أهمية دراسة لغة القرآن.

الفكرة الثانية: ضرورة النظر في دقائق التعبير اللغوي المفضية عبر الإيحاءات اللغوية إلى معانٍ لا يمكن الوصول إليها عن طريق الظاهر اللغوي المحض. وهذا النظر ليس بدعاً في الدراسات القرآنية، بل هو ضمن التدبر المشار إليه في قوله –تعالى–:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (سورة ص: الآية ٢٩).

وعلى هذين الأساسين نشأ هذا البحث. فما هي الصلة بين دقائق التعبير اللغوي القرآني من جهة وبين قصة موسى –عليه السلام– وفرعون من جهة أخرى؟ وما هو المسار الذي اتخذته اللغة الحاكية في وصفها لتصاعد أحداث القصة؟ وإلى ماذا أفضى هذا المسار؟ تلك الأسئلة هي ما حاول هذا البحث الإجابة عنه.

المقدمة

الحمد لله رب السماوات والأرضين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

أما بعد:

فإن الاهتمام بلغة القرآن صفة ملازمة للدراسات الناظرة في الكتاب العزيز منذ نزوله ليبرز بشكل خاص اهتمام الصحابي الجليل عبد الله بن عباس –رضي الله عنه–، حيث اهتم حبر الأمة وترجمان القرآن بتفسير غريب القرآن(1). ثم ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني من عرفوا ب"أهل المعاني"، وهم مصنفو مجموعة من الكتب وسمت كلها بـ"معاني القرآن"، ولم تنظر تلك الكتب في الغريب فقط بل اشتملت على غير قليل من الإشارات النحوية والبلاغية الخاصة بلغة القرآن.

حتى إذا جاء القرن الخامس ظهر عبد القاهر الجرجاني الذي مزج في ما عرف بنظرية النظم بين النحو والبلاغة، وأرجع حسن النظم إلى ما سماه "معاني النحو"(2) مخضعاً بذلك أسلوبية البلاغة إلى الالتزام بقوانين النحو، مما يعني أنه قد مزج بين النحو والبلاغة. ولكأن كتابه "دلائل الإعجاز" مقدمة نظرية لتفسير لغوي للقرآن الكريم التقط خيطها الزمخشري في القرن السادس ناسجاً منه الشق اللغوي من تفسيره "الكشاف".

وإنما نسوق تلك المقدمة للتعريف بجذور الدراسات المهتمة بلغة

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٣/ ٧٣٦.

(2) انظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ص ١١٨.

القرآن التي هي موضوع هذه الدراسة:

يقوم هذا البحث على أساس أن كل ما هو قرآني فهو لغوي بالضرورة، ذلك أن المعجزة الخالدة معجزة لغوية، وتتفرع هذه الفكرة من عمومها إلى جزئيات تنظر في "دقائق التعبير اللغوي" التي تتناثر بين أركان النص المقدس منشئة أنساقاً علائقية يستعان في التوصل إليها بالعلوم الناظرة في اللغة في مفرداتها وتراكيبها، ليُنظر بمجهرها في مواطن تلك العلائق داخل السياقات القرآنية المتدرجة من الجملة إلى الآية إلى السورة إلى النص القرآني كاملاً باعتباره خطاباً مجملاً موحداً من رب العزة -تبارك وتعالى- للثقلين.

خطة البحث:

يتأسس هذا البحث على قاعدة نمو قصة موسى -عليه السلام- وفرعون، وبعد تفكر ونظر ومطالعة لما كتب عن القصة من المنقول والمعقول وجدت أن القصة تمر بخمس مراحل من جهة تطور أحداثها، وتتحول تلك المراحل عن طريق "اللغة الحاكية" لأحداثها إلى سياقات هي كالآتي: (سياق العلو المنكسر، سياق المواجهة، سياق الاستدراج، سياق العبرةالتاريخية، سياق التشابه السلوكي).

وبالتأمل قي الوصف القرآني للأحداث، ثم لارتباطاتها العقدية والتاريخية، وجدت أن بعض تلك الأحداث وما وراءها من الوشائج الدلالية قد حُكي وفرعون حاضر حي، بينما حُكي بعضها الآخر بعد أن أخذ فرعون "أخذ عزيز مقتدر".

وتأسيساً على هاتين النقطتين كانت خطة هذا البحث كما يلي:

الفصل الأول: "فرعون الحاضر"، وتحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق العلو المنكسر.

المبحث الثاني: سياق المواجهة.

المبحث الثالث: سياق الاستدراج.

الفصل الثاني: "فرعون الغائب"، وتحته مبحثان:

المبحث الأول: سياق العبرة التاريخية.

المبحث الثاني: سياق التشابه السلوكي.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث منهجاً يميل إلى التحليل القائم أولاً على الجوانب التوقيفية في كل ما يخص قدسية الكتاب العزيز، ثم يقوم بدرجة ثانية على الجانب العقلي من آراء المفسرين واللغوين والنحاة والبلاغيين. أما الاعتماد على المراجع فقد ارتكز ضمن هذا المنهج على ما اقتضته الضرورة المجلية لدقة المعنى المعبر عنه باللغة الحاكية. وإذا اردت تعريفاً دقيقاً للغة الحاكية فهي "اللغة التي أخبر بها المولى سبحانه وتعالى بما وقع من أنباء الغيب المتمثل في مآلات ومصائر الأمم السابقة"، وصلة تلك اللغة بهذا البحث إنما كانت عبر" دقائق التعبير اللغوي".

وإني لأرجو أن يكون هذا البحث خطوة نحو بحوث أخرى بحول الله تتناول اللغة الحاكية لبقية قصص القرآن، ثم بحوث تليها – إن يسر الرحمن – تتناول اللغة الواصفة التي يندرج تحتها ما يصفه التبيان القرآني من استقامة الصراط، ومن الموجودات الكونية، ومن أحداث الآخرة.

الفصل الأول: فرعون الحاضر

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق العلو المنكسر.

المبحث الثاني: سياق المواجهة.

المبحث الثالث: سياق الاستدراج.

المبحث الأول: سياق العلو المنكسر

المقدمة القرآنية للقصة:

إن الذكر القرآني لقصة موسى -عليه السلام- يبدأ بميلاده، وأولى الإشارات القرآنية لهذا الميلاد وردت في صدر سورة القصص:

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾(سورة القصص: الآيات ١،٨).

تبدأ السورة بالحروف المقطعة التي تعقبها الإشارة إلى القرآن وآياته، لتبدأ بعدهما بشكل مباشر أحداث قصة موسى وفرعون اللذين يرد اسماهما مقترنين بالواو أداة العطف في الموضع الوحيد في القرآن لهذا الاقتران. ويلفت النظر أيضاً أن هذا الاقتران بين الحق الموسوي والباطل الفرعوني جاء مردفاً بالجار والمجرور (بالحق) وهذه معطيات مجملة يأتي تفصيلها في سرد أحداث القصة، وسأقف أمامها ههنا بشكل مجمل تحت العنوانين التاليين:

أ/ الحروف المقطعة:

ليست سورة القصص وحدها التي ذكرت فيها أحداث قصة موسى وفرعون وتبدأ بالحروف المقطعة، حيث تشترك معها في تلك البداية عدة سور أخرى كالأعراف ويونس وهود، وطه (على قول من قال إن "طه" من الحروف المقطعة) [(١)] والشعراء، والنمل، وغافر، وفصلت، ولكن اقتران القصة بتلك الحروف ليس قاعدة مطردة فقد وردت القصة مثلاً في سورة الإسراء التي لا تبدأ على هذا النمط، وتمت الإشارة إلى القصة أيضاً في عدة سور أخرى بشكل مختصر ولم تبدأ تلك السور بتلك الحروف مثل سورة القمر، وسورة الذاريات، وسورة النازعات.

أما ارتباط القصة بالحروف المقطعة فيستدعي وقفة عند آراء علماء السلف في هذه الحروف، قال القرطبي:

"هي إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحداهم أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم"[(٢)].

وكذلك نجد الإمام "البقاعي" يحاول الربط صفات الحروف من علو، واستفال، وشدة، ورخاوة، وغيرها بمقاصد السور [(٣)].

أما صاحب "ملاك التأويل" أبو جعفر الغرناطي فهو يرى أن تأويلها

---

(١) انظر تفسير الطبري: ١٦/ ٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٥٥.

(٣) انظر: مصاعد النظر: ٢/ ٢٥٧.

يقوم على مقتضى اللسان العربي حيث يقول "وهذا مسلك الجمهور، وهذا الذي نعتقد أنه الحق"[(1)].

وهذه الآراء تسوغ لنا الربط بين تلك الحروف المقطعة وبين القصص القرآني عموماً، وقصة موسى وفرعون بوجه خاص، فحروف الهجاء هي المكون اللغوي الأول، فالكلمات تتكون من حروف، والآيات تتكون من كلمات، والسور تتكون من آيات. وكذلك فإن رأي أبي جعفر الغرناطي القائل بتأويل تلك الحروف على مقتضى اللسان يحيلنا على اللسان العربي، أي على اللغة العربية، ولغة تلك القصص هي ما يمكن أن نسميه (اللغة الحاكية)، فهي أيضاً تتكون من حروف الهجاء التي يحاول الإمام البقاعي ربطها بمقاصد السور، مما يعني أن صلتها بمحتويات السور القصصية هي صلة الجزء بالكل. وإنما أسوق تلك الآراء للتدليل على أهمية الوقوف أمام اللغة الحاكية التي تشكل تلك الحروف المقطعة نوعاً من التنبيه إليها.

وأما مجيء بعض السور التي ذكرت فيها القصة على غير هذا النمط فقد كان للتدليل على أن ربط تلك القصة، وقصص القرآن عموماً، بلغتها الحاكية لأحداثها ليس قاعدة مطردة تنفرد بساحة المذاهب المفسرة لقصص القرآن، فهناك جوانب أخرى تخص أسباب النزول، وتخص الأحكام المختلفة المستنبطة من تلك القصص في أبعاد روحية وفكرية واجتماعية لا يجوز إغفالها، ولكنني أشير ههنا إلى أن الارتباط بين القصة والحروف المقطعة كان أكبر من ورود القصة في سور لا تبدأ بتلك الحروف، مما يعني

(1) ملاك التأويل: ١/ ١٧٣.

الأهمية المؤكدة للغة الحاكية.

ب/ ثنائية الحق والباطل:

إن أول ما تذكره اللغة الحاكية في سورة القصص هو ثنائية الحق والباطل التي يُشير إليها الاقتران الوحيد بالعطف لموسى وعدوه، ليحضر بعد ذلك مفهوم الحق. فإذا كانت التلاوة تتم بالحق فإن هذا الحق حاضر بالضرورة في مآلات القصة مع ضده الباطل. وإنما ورد الاسمان معاً لتكتمل صورة الحق الموسوي والباطل الفرعوني. ويأتي بعد هذه الصورة ذكر للباطل الفرعوني المدموغ بإرادة الحق الإلهي:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (سورة القصص: الآيتان ٥،٦).

وهكذا تكتمل الصورة مع وضع الحدود الفاصلة بين الحق والباطل، فالباطل يعلو ويظلم ويفسد ويسفك الدماء، والحق ينتصر بإرادة الله وحده، ودور اللغة القرآنية تبيين تلك الإرادة بدلالة وصف القرآن بأنه كتاب مبين:

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة القصص: الآيات ١، ٣).

قال الشوكاني: "والمبين المشتمل على بيان الحق من الباطل" [١].

---

(١) فتح القدير: ٤/ ١٨٢.

فهناك إذن عدة أسس تحكم بداية القصة، فهي ذات طرفين هما موسى وفرعون، أما موسى -عليه السلام- فقد مثل جانب الحق، وأما فرعون فقد مثل جانب الباطل، وتحضر اللغة الحاكية من خلال الحروف المقطعة، ومن خلال ذكر بيانية القرآن نصيرةً للحق فاضحةً للباطل، لتبرز لنا بعد تلك المعطيات الإرادة الإلهية بالمن على الذين استضعفوا، وتلك إضاءات مجملة تشكل مقدمة لعلو الحق وانكسارات متوالية للباطل.

الانكسار الأول: العلو والالتقاط:

العجيب أن قصة موسى وفرعون في السرد المباشر لأحداثها تبدأ، بعد المقدمة التي ربطتها بالقرآن وبالحروف المقطعة، بذكر علو فرعون:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(سورة القصص: الآية ٤).

وقد ذكر بعض المفسرين ومنهم الطبري[1] أن الأرض المقصودة هنا هي أرض مصر بينما يترك ابن كثير الأمر على عمومه [2]، وهو رأي يبدو مقبولاً لأن الجار والمجرور (في الأرض) قد تكرر في هذا السياق ثلاث مرات: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ﴾ ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

والرأي عندي أنها الأرض التي فيها معيشة الإنسان عموماً وجاء

(١) جامع البيان: ١٨/ ١٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٢٠.

تكرار ذكرها تأكيداً لانتماء فرعون إليها ببشريته التي كان بدء أمرها بخلق آدم من ترابها، وللتأكيد أيضاً على أنه مهما علا فلن يتجاوز تلك الأرضية التي حاول تجاوزها في ما سيأتي ذكره، ولنا على أمر العلو في الأرض عود بعد عود بحول الله.

ويلحظ هنا أن ذكر هذا العلو قد ورد في سياق يدل على أنه قد سبق ميلاد موسى -عليه السلام-، وبمولده يبدأ هذا العلو في الانكسار، ويدل على ذلك أن أول صلة بين العدوين كانت عبر الالتقاط:

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (سورة القصص: الآية ٨).

قال القرطبي:

"والالتقاط وجود شيء من غير طلب ولا إرادة"[١].

وقال ابن منظور:

"اللقط أخذ الشيء من الأرض، لقطه يلقطة لقطاً والتقطه: أخذه من الأرض"[٢].

ودلالة الالتقاط تشير إلى انتفاء الإرادة والطلب، فالإرادة الفاعلة الوحيدة هي إرادة الله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. أما الهيئة التي يتم بها فعل الالتقاط فتشير إلى انحناء من هيئة الوقوف إلى هيئة أخرى تقرب الملتقط إلى الأرض: إنه أول انكسار للعلو الفرعوني لا ينفيه كون

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٥٢.

(٢) لسان العرب مادة (لقط).

الملتقطين هم آله وليس هو، فمن الطبيعي أن تجد انكسارات العلو الفرعوني باباً تلج إلى هذا العالي من خلاله، فهو -وإن لم يكن فاعل الالتقاط- متأثر بما فعله آله تأثراً مباشراً.

إن دلالة العلو ترتبط بدلالة الالتقاط في علاقة شديدة التوتر يؤكدها قوله -تعالى-: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾، فالتوتر كائن في تسليط فرعون على نفسه وهزيمته بجنده، فالذين التقطوا موسى -عليه السلام- إنما أدخلوا الموت إلى قصر فرعون. وفي دلالة الالتقاط إيحاء باستصغار هذا الشيء الملتقط، وهنا يقوم توتر آخر: كيف يسعى فرعون إلى بيوت بني إسرائيل ليقتل كل غلام يولد حتى إذا سعى اليم بهذا الغلام إلى قصره تركه؟ كان لابد من استصغار فرعون لشأن موسى ليتركه حياً.

الانكسار الثاني: "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ":

هذا الانكسار الأول يدل بوضوح على انعدام الإرادة عند فرعون وآله، ويؤكد هذا الانعدام تكرار قوله -تعالى-: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ في الآيتين (٩) و(١١) من سورة القصص ففي الآية الأولى جاء قوله -تعالى- ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة القصص: الآية ٩).

وقد ذهب المفسرون إلى أن الذين لا يشعرون هم آل فرعون، قال الطبري: "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بما هو كائن من أمرهم وأمره". [1].

(١) جامع البيان: ١٨/ ١٦٥.

وقال الألوسي: "وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم في ما صنعوا"[١].

وإذا كان الفعل (شعر) يدل على العلم[٢]. ويدل أيضاً على المشاعر التي هي الحواس[٣]. فإن عدم شعورهم يعني التعطيل التام لكل صلتهم بالمعرفة والإدراك بالفعل أو بالحواس.

ثم يُردَف هذا الجهل وانعدام الإدراك بجهل آخر: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة القصص: الآية ١١).

قال الإمام البقاعي: "﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ أي: بُعد من غير مواجهة، ولذلك قال: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: ليس لهم شعور لا بنظرها ولا بأنها أخته، بل هم في صفة الغفلة التي هي في غاية البعد عن رتبة الإلهية" [٤].

وهذه صورة قرآنية ترسمها اللغة الحاكية في خيال قارئ هذه الآيات ومركز هذه الصورة هو الأخت، ليس موسى -عليه السلام-، وليس آل فرعون، والدليل على ذلك أن الآية تحكي متابعتها للتابوت من بعيد، ثم تتحول تلك المتابعة المتخفية إلى ظهور أمام أهل القصر لتخاطبهم تلك الأخت في جرأة شديدة، كل هذا ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾: ما الذي جاء بهذه

---

(١) روح المعاني: ١٠/ ٢٥٨.

(٢) لسان العرب: مادة (شعر).

(٣) المفردات: مادة (شعر).

(٤) نظم الدرر: ١٤/ ٢٥٠.

الفتاة إلى القصر؟ أليس على وجهها ملامح بني إسرائيل؟ فإذا أغفل الآل الملامح الإسرائيلية على وجه الصغير فكيف لم يستطيعوا التعرف عليها على وجه الفتاة المميزة الرشيدة الحسنة التصرف؟ فإذا لم يكن منهم هذا ولا ذاك فكيف لم يتشككوا في الصلة بين الرضيع والأم التي لم يقبل رضاعة من غيرها؟ كل هذه التساؤلات لا يفسرها إلا انعدام الشعور ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وتأمل معي قول الأخت ﴿ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فبماذا سينصح أهل بيت إسرائيلي غلاماً إسرائيلياً؟ إنها التربية، سوف ينشأ هذا الغلام نشأة إسرائيلية مغلفة بالنصح والإرشاد يؤكدها تحقق الوعد الإلهي ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ﴾ وهذا أخطر ما في بداية هذه القصة، فلو نشأ موسى –عليه السلام– في القصر لتربي قبطياً، ولكن إرجاعه إلى أمه كان بداية لمسار الأحداث التي كان ختامها مصرع فرعون.

إن ما سيأتي سرده من أحداث القصة يوحي بيقظة فكر فرعون ويدل على دهائه ومكره السياسي، فكيف يغفل هذا السياسي المحنك عن كل تلك التفاصيل، لا تفسير لذلك سوى أنه قد سلب خاصية الإفادة من تجاربه. وظاهر الآيات يوحي أيضاً بأن أهل القصر قد انشغلوا بأمر موسى والعثور على مرضعة له حتى لم ينتبهوا إلى ظهور أخته على مسرح الأحداث من حولهم، وإنما كان هذا الانشغال عبر الإرادة الإلهية: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (سورة طه: الآية ٣٩).

إنه التدبير الإلهي للأحداث أبعد يد فرعون ودمويته ودهاءه وأحل

محل كل ذلك غفلة من سبق عليه القلم. ويلحظ أن هناك عدة أسباب تحركت حول الرضيع لتصنع له هذا المستقر في قصر عدوه: هناك التقاط الآل له، وهناك متابعة الأخت واقتراحها لكفالته، وهناك امرأة فرعون التي حاولت أن تدفع عنه القتل: ﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (سورة القصص: الآية ٩).

إن مخاطبتها لفرعون في هذه الآية تدل على أنه داخل في الزمرة المسلوبة الشعور، وتطوي الآية ذكر ردة فعل فرعون، وتستعيض عنه بما حوته من الإشعار بحركة تلك المرأة حتى لتكاد تشعر بلهاثها وهي تخاطب فرعون، ثم تتحول عن مخاطبته إلى مخاطبة جنوده، والتأمل في الآية يعلمك بأنها قد انتزعت موقفاً إيجابياً من فرعون، وإلا لما التفتت لتخاطب جنوده وهو المفسد العالي، فتحول الموقف الفرعوني ليس بتأثير امرأته بل بالإرادة الإلهية، والآية تحتوي على إشعار بجهد هذه المرأة حيث يتنوع كلامها بين الخبر والإنشاء أولاً، ثم يتنوع من خطاب فرعون إلى خطاب جنوده في ما يعرف بالالتفات ثانياً، ثم يتنوع ما بين الإفراد في قولها ﴿ لِّي وَلَكَ ﴾ والجمع في قولها ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ قال الألوسي:

"كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى – عليه السلام– أمنت منه بادرة أمر جديد بقتله، فالتفتت إلى خطاب المأمورين قبل فنهتهم عن قتله معللة ذلك بقوله -تعالى- المحكي عنها ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ وهو أوفق باختلاف الأسلوب حيث

فصلت أولاً في قولها ﴿ لِّي وَلَكَ ﴾ وأفردت ضمير خطاب فرعون، ثم خاطبت وأجملت الضمير في ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ ثم تركت التفصيل: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ "[(١)].

وهذا التنويع إنما جاء ليضفي على المشهد ما تحمله اللغة الحاكية من إيحاء بجهد امرأة فرعون، فتحولها من أسلوب إلى آخر ومن مخاطب إلى آخر، ومن إفراد إلى جمع كان بديلاً لوصف حركية داعية استنفدت من خلالها امرأة فرعون جهودها لضمان المستقر الآمن للرضيع في قصر عدوه، فكأن تحركها الخطابي كان عبارة عن وصف لتحركها الدعوي.

(١) روح المعاني: ١٠/ ٢٥٨.

المبحث الثاني: سياق المواجهة

التمهيد الإلهي: غطاء الرسالة:

يطوي القرآن ذكر صبا موسى وشبابه الأول ولا يخبرنا عن تفاصيل حياته ما بين أمه وقصر فرعون، وهذا الطي ينبئنا بأن رده -عليه السلام- إلى أمه هو الذي غلب على تنشئته، وأن اقتراح أخته ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ هو الذي هيمن على تربيته. إلا أن الأحداث تقف بنا عند قتله للرجل القبطي وخروجه من مصر إلى مدين وما وقع له من الأحداث التي لا صلة لها بفرعون بشكل مباشر. ولكن الصورة المجملة لهذه المرحلة تشير إلى زيادة التعقيد الذي يضعف موقف موسى -عليه السلام- في مصر، ليخاطبه ربه -جل وعلا- في جبل الطور بالرسالة في ظل هذا الضعف: مطارد من قبل السلطة السياسية لجناية قتل تتخذ شكل التمرد السياسي على تلك السلطة، ولا نصير له من قومه المستضعفين، بل هو مبعوث لنصرتهم وتخليصهم من ظلم فرعون، إن الشكل العام للموقف الموسوي يوحي بضعف شديد أمام الطغيان السياسي والاجتماعي لفرعون.

لقد هيمن الخوف على نفسية ذلك المبعوث، فكان التعبير عنه هو أول ردة فعل على الرسالة، وقد شاركه أخوه هارون هذا الخوف مما يدل على أنه إحساس واقعي وليس خاطرة فردية:

قال -تعالى- في سورة طه: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٤٦).

وقال -تعالى- في سورة القصص: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا

فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (سورة القصص: الآيات ٣٣،٣٥).

وقال -تعالى- في سورة الشعراء: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ (سورة الشعراء: الآيات ١٢،١٥).

إن مخاوف موسى -عليه السلام- تتجلى في عدة نقاط:

﴿أَن يُكَذِّبُونِ ﴾، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾،﴿أَن يَقْتُلُونِ ﴾

ويضاف إلى تلك المخاوف التي تفرد بها موسى مخاوف أخرى اشترك فيها معه أخوه هارون: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾

ويأتي النصر الإلهي لموسى ببعث هارون نبياً معه:

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

ثم بالمعية الإلهية:

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾،﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

إن عوامل النصر الإلهي ترتكز على (المعية الإلهية، السلطان، الآيات).

قال الطبري في تفسير قوله -تعالى-: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾:

"﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ما يحاوركما فأوحي إليكما ما تجاوبانه"[(١)].

وقال في تفسير قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ "من قوم فرعون ما يقولون لكم ويجيبونكم به"[(٢)].

أما السلطان فقد قال ابن كثير إنه "الحجة القاهرة"[(٣)]. وهذه الآراء مجملة تشير إلى نقطة واحدة هي: (الحوار بين موسى وفرعون)، وهو قمة من قمم الصدام بين الخير والشر، وتشير آراء الطبري وغيره من المفسرين إلى أن المعية الإلهية جاءت مؤيدة لموسى -عليه السلام- في الجدال مع عدوه. إذن فقد كانت المناصرة الإلهية لموسى على فرعون عبر ردود موحى بها على جدال فرعون ومزاعمه. وهذا هو غطاء الرسالة: (الآيات والسلطان) جعلهما الله ستراً يقي به نبيه من طول فرعون إياه. وقد ارتكز خوفه -عليه السلام- على ما خبره من طباع فرعون، وكأني به وهو يشعر بتصيد فرعون لأخطائه، وهي أخطاء سيستغلها فرعون ضد موسى ويتحين الفرصة لقتله -عليه السلام-، ولكن وراء الأمر ستراً آخر، فحتى لو وجد فرعون مسوغات القتل فهو لن يستطيع ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾، لقد تمت حماية الرسالة بالإرادة الإلهية قبل الشروع في تبليغها. ولننظر في ما أشارت إليه اللغة الحاكية في سرد المخاطبة الأولى بين موسى وفرعون:

(١) جامع البيان: ١٦/ ٧٧.

(٢) نفسه: ١٧/ ٥٥٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٣٦.

السلطان والآيات: بداية الفاعلية:

بلَّغ موسى وهارون الرسالة في مرحلة العرض على فرعون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ١٦).

فبماذا أجاب فرعون: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الشعراء: الآيات ٢٣،٢٨).

هذه الآيات تحكى حواراً يمثل من طرف موسى محاولة تعريف، ومن طرف فرعون محاولة تعرف تتخذ طابع المعاجزة، فقد عرَّف النبيان نفسيهما وحددا مهمتهما ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فلفتت كلمة العالمين المضافة إلى الربوبية نظر فرعون المتأله المتربب، فأراد أن يتعرف على هذا المنافس بزعمه ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. ولقد ظهر الكمال الإلهي مقابل النقص الفرعوني، فهذا الحوار لا يفهم إلا في سياق إدراك فرعون لبشريته، ولكنه إدراك يصبغ بمحاولة إخفاء البشرية وإظهار نفسه في صورة المتأله المرتبب، وهي محاولة حكم عليها بالفشل لضعف أساسها المناقض للحقيقة. وهنا تكمن أهمية غطاء الرسالة بالوحي الإلهي، فقد سأل فرعونُ موسى -عليه السلام-: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهو سؤال يحمل في ظاهره نوعاً من المعاجزة: لولا ثقتي بنفسي لما سألت عن منافسي- في الألوهية والربوبية، ولكنها معاجزة

مغلفة بالفضول الهادف إلى التعرف على إله موسى، فأجاب موسى بعدة أجوبة:

الجـواب الأول: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ صدرت ردة فعل فرعون عن المعاجزة والفضول فبدأت الحقائق الكونية تتحرك في مجلس فرعون للرد على سؤاله الفضولي العاجز: فقد بدأ موسى بالمكان فاختار الإطلاق منطلقاً للرد فكان الإطلاق مكانياً: إنه رب كل شيء، وهل من شيء يخرج من السماوات والأرض وما بينهما؟ وأهم ما في جواب موسى أنه لم يتوجه به إلى فرعون بل إلى كل الحاضرين الذين يشكلون ساحة لعرض التأله الفرعوني بشكل استبدادي، وهي محاولة شديدة الذكاء من موسى -عليه السلام-، فما كان من فرعون إلا أن ذهل بهذا الرد، وكأني به يصمت ثم ينتبه إلى منطلقات موسى المتحركة في ساحة تألهه وتربيه فتحدثنا الآية التالية أنه: ﴿ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴾، وهو قول تتفرع عنه عدة دلالات:

الدلالـة الأولى: أنـه يـأتي موازيـاً لقولـه -تعـالى-: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾، وإن تلك المقابلة بين استماع الله -تبارك وتعالى- واستماع أنصار فرعون لا تفهم إلا عند التأمل في موقف موسى -عليه السلام-، فقد وعده ربه بالاستماع لما يقال له حتى يوحي له بالرد. ثم التقى فرعون فإذا بفرعون يبحث عن من يناصره ويمده بما يجيب به موسى، وهنا تأتي أهمية المقابلة: موسى مؤيد باستماع الله -تعالى- ووحيه، وفرعون يبحث عن مستمعين من البشر ليناصروه على هذا المتحرك في ساحة تألهه.

الدلالة الثانية: وهي دلالة توحي بمأزق فرعون، فإذا ضمن فرعون استماع من حوله فمن أين له أن يضمن مناصرتهم إياه بهذا الاستماع؟ وهنا تنقلنا اللغة إلى الدلالة الثانية التي توحي بأن فرعون يتمنى لو أن جوابهم كان: لا، نحن لا نستمع. ذلك أنهم إذا عجزوا عن مناصرته فالأولى بهم أن يكونوا خارج نطاق الجدال بين العدوين.

الدلالة الثالثة: وتوحي بيأس فرعون من مناصرتهم إياه، فكيف يقف استماعهم مقابل الاستماع الإلهي، وبيأسه أيضاً من استمالة استماعهم، فإذا لم يتحقق له أي من هذين الرجاءين حاول نقلهم إلى مرحلة السخرية من موسى -عليه السلام-، فيتوجه بالخطاب إلى من حوله ممن لا رجاء في مناصرتهم، وممن استمعوا لما قاله موسى -عليه السلام-، فيخاطبهم محاولاً أن يحرك في شعورهم نوعاً من السخرية منه يوحي بها السؤال المطروح عليهم، وكأن لكلامه بقية: ألا تستمعون لهذا الكلام العجيب الدَّاعي إلى السخرية.

إن استفهام فرعون ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يدل على أنه لم يكن خصماً سهلاً، فقد طرح في هذا الاستفهام أشكالاً من المكر لا يمكن أن يأتي بها إلا عقل سياسي محنك فهو يضع -عبر هذا السؤال- أمام الملأ في مجلسه خيارين: إما أن يناصروه، وإما أن يسلموا له بأنهم لم يستمعوا لما قاله عدوه. كل هذا وهو في الحقيقة لم يقم بطرح هذين الخيارين أصلاً، بل ترك اللغة الحاكية هي التي تطرحها بدلاً منه، فيما ندت تلك اللغة من يده وتمردت على علوه وأعلنت خضوعها لله -سبحانه وتعالى- حين طرحت الاستماعين: استماع الحق -تبارك

وتعالى- لما يدور بين موسى وعدوه، واستماع ملئه لكلام موسى ليناصروه عليه.

الجواب الثاني: ما يلبث فرعون أن يفيق من اهتزازه الممزوج بالسخرية على الجواب الثاني: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

وهو جواب يعود بالحاضرين إلى الماضي البشري أي إلى آبائهم، وذلك عبر إعمال العقول إعمالاً يفضح الألوهية المدعاة من فرعون، فالجواب ينفي الإطلاق الزماني عن ألوهية فرعون ولك أن تتخيل أنك أحد الموجودين في مجلس فرعون، ألن تتحرك في ذهنك فكرة مفادها: إذا كان فرعون ربي فأين كان قبل أن نولد نحن وهو؟ إذن لابد من رب آخر يكون رباً لآباء فرعون، فكيف يكون فرعون رباً لآبائه؟ وإذا لم يكن فرعون رباً لآبائنا فهو ليس رباً لنا، وحتى لو كان رباً لنا فهي ربوبية منتقصة تفتقد إلى الإطلاق عبر الزمان الماضي على عكس ربوبية الإله الحق فهو ربنا ورب آبائنا الأولين.

لقد أدرك فرعون ما يدور في أذهان الحاضرين فتحول من السخرية التي مرت بنا من الدلالة الثالثة إلى التهمة ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ فهو يستعمل نفس المنهج الموسوى في مخاطبة جلسائه، متحركاً في نفس الساحة التي تحرك فيها موسى من قبل. وأول ما يلفت النظر في هذه العبارة أنها تحتوى على إيمان مبطن ذلك إننا إذا تصورنا أن خبر (إن) المؤيد بلام التوكيد لم يكن موجوداً، ألن تدل العبارة المكونة من (إن) واسمها وكاف الخطاب وميم الجمع والاسم الموصول وصلة الموصول، ألن تدل تلك العبارة على إيمان فرعون، وتصديق ذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَجَحَدُواْ

بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ (سورة النمل: الآية ١٤).

إنه هذا الاستيقان يخرج من لسان فرعون ثم يأبي فرعون إلا أن يلوي الحقائق الجارية على لسانه إلى أكاذيب فيأتي بخبر "إن" حاملاً ضداً واحداً هو الحكم على موسى بالجنون، وهي محاولة منه لبثِّ السم بعد الترياق، فقد أدرك فرعون أن موسى يتحدث عن ربه -سبحانه وتعالى- ورب فرعون ورب كل شيء بأبعاد لا قِبَل له بها، ولا يملك حجة يرد بها عليه مع إدراكه يقيناً لما يدور في أذهان الحاضرين، فذهب يشكك في مصدر الخطاب الموجه للحاضرين وهو موسى -عليه السلام-.

وبقراءة ثانية للآية نتبين أن فرعون يتحدث إلى هؤلاء الحاضرين بمنطق التأييد لامتناعهم وهو تأييد يظهر في العبارة الأولى ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ وهي عبارة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يحتوى على المضاف (رسول) والمضاف إليه (ضمير المخاطبين) متبوعاً بالميم التي لجمع الذكور.

القسم الثاني: يحتوى على الاسم الموصول وصلته، ولا فرق في المعنى بين القسمين فإذا كان رسولهم فلابد أن يكون قد أرسل إليهم، فالقسم الثاني: عبارة عن تكرار للقسم الأول فلا فرق بين قوله ﴿ رَسُولَكُمُ ﴾ وقوله ﴿ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ وهذا التكرار دليل على قناعة فرعون برسالة موسى في شكل حقائق تجري على لسانه ثم يلويها، وهو بذلك يردد العبارة المجسدة لإيمان الحاضرين من حوله فكأن هذه العبارة بقسميها حديث يدور داخل كل فرد من الحاضرين، فهو يتبنى منطق قناعاتهم، ولكن

لينقض هذا المنطق بضده، فكأنه يردد العبارة المجسدة لإيمانهم، يرددها ليمحوها بقوله: ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ ولو كنتَ في موضع أحد هؤلاء السامعين لظننتَ أن فرعون سيقول بعد ذلك (لصادق) أو (لعلى حق) ويتنازل عن التأله والتربب ويعلن إيمانه، لكنه يخالف الظنون التي تؤيدها عبارته، وهذا التضاد بين طرفي عبارته هو التضاد القائم بين القناعات التي صنعتها مخاطبة موسى –عليه السلام- للحاضرين من جهة وبين رغبة فرعون من جهة أخرى، فذهب فرعون يخاطب الحاضرين وكأنه يقول لهم: أنا معكم أسلم بصدق هذا المتكلم البارع، إلا أن حديثه يفتقر إلى أكبر أساس نستطيع من خلاله الحكم على ما يقوله أيُّ متكلم وهو (العقل).

الجواب الثالث: التقط موسى –عليه السلام- سهم فرعون ورماه به:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

فهو يعود إلى فرعون عبر أبواب الضدين (العقل والجنون) وكأنه يقول للمخاطبين: لو سلمت بزعم ملككم بجنوني أنا فأين عقولكم أنتم؟ إن ربي هو رب المشرق والمغرب وما بينهما، إنها الأرض كلها، وهل الأرض شيءٌ غير مشرق ومغرب ومكان بينهما؟ . لقد أدرك موسى أن التعميم الشديد المفضي إلى إطلاق المكان الكوني قد يبعد عن عقول المخاطبين، فخفض الإطلاق ليتحدث عن إطلاق مكاني أرضي، وذلك لأن فرعون لا يستطيع منافسة الحق –سبحانه وتعالى- على ملك شيء خارج الأرض، وبالتالي فالعقل يشير إلى أن ملك الكون لن يكون لفرعون، فاستغل فرعون تلك النقطة التي حسبت عليه ليحولها إلى صالحه وكأنه يقول: أين عقل هذا

الرسول الذي يحاول إقحامي في ما لم أدَّعِ ملكه؟ فما كان من موسى-عليه السلام- إلا أن جارى فرعون الذي أراد لتألهه وترببه أن يقتصرا على الحاضر البشري زماناً، وعلى حدود مملكته مكاناً. وهو منطق يقصي موسى -عليه السلام- من نطاق الجدال الفكري عبر أبواب الجنون، فدخل موسى -عليه السلام- إلى المخاطبين مرة أخرى عبر ضد الجنون وهو العقل ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وهل من عاقل يصف نفسه بغير العقل فهو يستعمل (إن) الشرطية فيشترط العقل في من سيصدق ما يقوله، وهو نفي غير مباشر لجنونه -عليه السلام-.

لقد كان الطبري شديد الحساسية تجاه دلالة الآية حين أشار في تفسيره لها إلى أن ملك فرعون لم يتجاوز عرش مصر[1]. وليست مصر سوى جزء يسير من المشرق والمغرب وما بينهما، وهذه حقيقة يقِرُّ بها فرعونُ نفسُه:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الزخرف: الآية ٥١).

وقال الرازي: "إن ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام، ولما هرب موسى -عليه السلام- إلى مدين قال له شعيب ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (سورة القصص: الآية ٢٥) فمع هذا كان يعتقد أنه إله العالم[2]".

---

(١) جامع البيان: ١٩/ ٣٤٥

(٢) التفسير الكبير، ٢٢/ ٥٧.

فالله -تعالى- يخبر على لسان نبيه بما يملكه فعلاً، وفرعون كذلك يخبر قومه بما يملكه ملك ظن وادعاء. أما موسى فيعقب على ما يقول بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وأما فرعون فيعقب على ما يقوله بقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فموسى-عليه السلام- يطلب منهم استعمال العقل، وفرعون يطلب منهم استعمال البصر المحدود لأنه يعلم أن ملكه محدود، أما ملك الملك الحق فلا سبيل لإدراكه بالبصر، ولابد من إعمال العقل في المقارنة بين الملكين، فغاية ما يحققه فرعون هو الاستعلاء الكاذب الذي يقنع من تعطلت عقولهم ولا سبيل له إلى من أعمل عقله. لذلك سعى فرعون إلى إعمال البصر إعمالاً يعطل العقل لأنه علم أن العقل أكبر جند الله، وعنه تتفرع أدلة التوحيد، ولا يتفرع عنه لفرعون شيء.

لقد اتهم فرعونُ موسى-عليه السلام- بالجنون مقصياً إياه من ساحة الجدال التي لا مكان فيها إلا للعقلاء، ولم يرد موسى -عليه السلام- على التهمة بل قام بإدخال جميع الحاضرين إلى الساحة التي أقصي منها، وهي ردة فعل تؤكد أن موسى مؤيد بالوحي الإلهي، فالعقل هو أداة انتصار الحق في مناظرة قهر فيها فرعون الحقائق ليصبح أهلاً للدخول فيها طرفاً من طرفي الصراع الفكري في ثنائية يطيش الباطل فيها كالهباء المنثور إذا ما ارتفعت كفته بفعل ترجيح كفة الحق.

قعقعة الشن[1]:

لكأني بموسى -عليه السلام- يقف في هدوء على حين يغلي فرعون بفعل الانتصار الجدالي لعدوه عليه، والتباين بين وجهي العدوين هو التباين بين الحق الأبلج والباطل اللجلج. فمضى فرعون يلملم ما بعثرته منه تلك المناظرة عامداً إلى الإرهاب في الشق الذي يملكه من شأن قومه: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[2] (سورة الشعراء: الآية ٢٩).

وهنا تتجسد لنا دقة لغة القرآن في وصف الإيحاء والإيماء، ففرعون يريد أن يعود إلى ساحة الصراع من جديد، ولكن ليس من جهة المناظرة بل من جهة السلطة المادية، وهو موقف يعبر عن استسلامه لهزيمة الجدال العقلي التي تلقاها على يد موسى -عليه السلام-، فخرج من ساحة الجدال إلى ساحة الصراع المادي ملوحاً بعصا غليظة لقومه وإن كان الخطاب لموسى -عليه السلام-، حيث كان بإمكان فرعون أن يقول لموسى (لأسجننك)، لكنه يستعمل (من) التي للتبعيض حتى يلفت نظر السامعين الذين سيلفتون نظر الشعب كله إلى أن هناك مسجونين قد يكون كل فرد من

(١) قال الميداني: "القعقعة: تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوتٍ مثل السلاح وغيره، والشنان: جمع شن، وهو القربة البالية، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السيرِ لتفزع فتسرِع، قال النابغة:

كأنكَ من جمال بنى أقيش. . . يقعقع خلف رجليه بشن". انظر: مجمع الأمثال: ٢/ ٢٦١

(٢) ولم ترد مادة "سجن" في صيغة اسم المفعول إلا في هذا الموضع.

الحاضرين مسجوناً فرداً من جماعتهم. ولو قال (لأسجننك) لكان الخطاب لموسى وحده ولكنه يقعقع الشن حتى يمحو آثار ما قاله موسى على نفوس الحاضرين الذين يعمد إلى إرهابهم بالسجن رغم أنه لم يفتح فمه بوعيد مباشر، مما يدل على أن اللغة قد أدت وظيفةً بالغة التأثير في الصراع بين الكليم-عليه السلام- وفرعون.

السؤال بصيغة أخرى:

هذا ما حكته القصة في سورة الشعراء: حوار يبدأ بسؤال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إلا أن لفرعون سؤالاً آخر ورد في معرض ذكر القصة في سورة طه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ (سورة طه: الآية ٤٩).

ويري الرازي أن سؤال سورة طه كان مقدماً على سؤال سورة الشعراء[1]. إلا أنني أستبعد هذا الرأي باعتبار أن الجدال الذي دار في سورة الشعراء كان عاماً وقد بُهِت على إثره فرعون فذهب يهدد بالسجن، أما في سورة طه فهو سؤال توجه به فرعون إلى الرسولين -عليهما السلام- بشكل يوحي بالسرية والخصوصية في الطرح مما يرجح عندي أن السؤال الخاص جاء محاولة لهجوم جديد بعد الهزيمة الجدالية، فذهب فرعون يبحث سراً عن ثغرة ينفذ من خلالها إلى فكر هذا المجادل صاحب الحُجج، فاستدعاه وأخاه ليتحدث إليهما على انفراد. وربما كان هذا الاستدعاء سابقاً للوعيد بالسجن فبماذا أجابه موسى -عليه السلام؟:

---

(١) التفسير الكبير: ٢٢/ ٥٧.

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٥٠).

قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية:

"ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق"[١].

وللمفسرين كثير من الآراء في تفسير هذه الآية أغلبها يصب في تفاصيل صغيرة رأوا أنها هي المراد بإعطاء كل شيء خلقه ثم هدايته، ورأى الشنقيطي أن الآية تحتمل كل ما ذهب إليه المفسرون[٢].

لقد حاول فرعون تقليص نطاق ربوبية الإله الواحد –سبحانه وتعالى– فخاطب موسى وهارون باعتبار أنه ربهما فقط، فأجابه موسى بإجابة لا تأتي إلا من نبي يوحي إليه، فقد احتوت إجابته على ثلاث صفات لله –تعالى– هي: العطاء والخلق والهداية، وعليهن تقوم كل الموجودات في إطار تلك الكلية الشاملة (كل شيء)، وهي كلية تؤطر كل موجود في كل زمان وكل مكان، ولا يخرج منها شيء تقع عليه العين أو تسمع صوته الأذن، أو يدركه الشعور. وتلك الشيئية يدخل تحتها كل ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم وكواكب وشهب، إنها إطار كوني للمكان، وهي إطار كوني للزمان أيضاً، فمفهوم الخلق يحمل دلالتين أشار إليهما الراغب:

- إبداع الشيء من غير أصل، مثل خلق السماوات والأرض.

(١) الكشاف: ٣/ ٦٧.

(٢) أضواء البيان: ٤/ ١٩.

- إيجاد الشيء من الشيء، ويدخل تحته مفهوم التكاثر. [١]

وما من شيء يظله سقف زمان أو سقف مكان يخرج عن تلك الشيئية الكلية، ويدخل تحتها فرعون الذي هو من جملة الأشياء فهو داخل في عموم كل شيء.

ورغم ذلك يعاند فرعون ويحاول من جديد أن يكِرَّ كرَّةً بعد إجفال[٢]:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (سورة طه: الآيتان ٥١،٥٢).

لقد احتوت صفة الخلق على إبداع ما لم يكن له مثيل، كما احتوت على خلق كل ما سيخلق في المستقبل مما كان له مثيل من قبل، وقد وعى فرعون ذلك بشكل يؤيده وضوح الخطاب، لكنه أصر على إظهار نفسه في شكل الجاهل الذي يجعل منه ذلك الوضوح متجاهلاً، فذهب يسأل عن الماضي البشري، فإذا بصفة رابعة يدخلها موسى -عليه السلام- وهي صفة العلم غير الزائل، فأعيد فرعون إلى نقطة الصفر في هزيمته الجدالية، ويلحظ أن فرعون يتحدث إلى موسى وهارون باعتبار أن الله ربهما وحدهما، ولكن

---

(١) المفردات: مادة (خلق).

(٢) يقال جفل القوم وأجفلوا إذا أسرعوا في الهرب، وكل هارب من شئ فقد أجفل عنه، قال امرؤ القيس:

(ولم أسبأ الزق الرَّوي ولم أقل   لخيلي كرِّي كَرَّةً بعد إجفال)... انظر مادة (جفل) في كل من الجمهرة لابن دريد وأساس البلاغة للزمخشري.

الحقيقة الكونية المتجسدة في عقيدة التوحيد تأتي في رد موسى على فرعون مجيباً عن سؤال، ففرعون يقول له (ربكما) وموسى يجيبه (ربنا) بضمير المتكلمين (نا) وهو ضمير يشمل فرعون أيضاً، أي أنه ربنا نحن جميعاً، وأنت من ضمننا يا فرعون، وهذا انتصار تحققه اللغة على لسان ذلك النبي الموحى إليه، فمهما حاول فرعون إخراج نفسه من ربوبية الله –سبحانه وتعالى– طاردته اللغة في قواعدها المجسدة لدلالاتها وفي طاقاتها الجدالية لتعيده عبداً لله يحاول الفرار من تلك العبودية ويفشل في كل محاولاته.

وكل محاولات فرعون تجسدت في تقييد الربوبية بقيد زمان أو مكان لأنه يعلم أنه لا يقدر على منافسة ذلك الإطلاق الكوني المستعصي على التقييد، لكنه كان يصطدم بأن هذا الإطلاق واقع كوني تؤيده الموجودات كلها، وأنه مربوب وليس رباً.

الآيتان:

بعد أن وجد موسى –عليه السلام– نفسه في مواجهة أحد أمرين: إما التسليم بإلهية فرعون، وإما السجن استعمل لأول مرة الآيتين: العصا واليد:

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الشعراء: الآيات ٢٩،٣٤).

وفي سورة الأعراف:

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ (سورة الأعراف: الآيات ١٠٦،١١٢).

ما يزال فرعون يعوِّل على احتمال وجود ثغرة في دعوة موسى فنراه يربط المجيء بالآية في سورتي الأعراف والشعراء بالصدق، وهي مرحلة جديدة يحاول فرعون الانتقال إليها متعلقاً بأمل احتمال كذب موسى -عليه السلام-، ليخيب ذلك الأمل ويصدق موسى في آيتين هما العصا واليد، وتؤكد اللغة الحاكية صلة هاتين الآيتين بفرعون وملئه حين تصف الثعبان بأنه مبين، قال القرطبي في تفسير قوله ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾:
"أي حية لا لبس فيها"(١).

وقال الطبري: "تتبين لمن يراها أنها حية" (٢).

بينما يصف الله -تعالى- اليد بأنها ﴿ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ في إشارة واضحة إلى فرعون وأهل مجلسه، وإبانة الثعبان إذا أضيفت إلى بياض اليد للناظرين يجعلان بين أيدينا صلة واضحة بين الآيتين من جهة وفرعون وملئه من جهة أخرى: إنها صلة الناظر الرائي بما ينظر إليه ويراه بأم عينه، ليحاول فرعون التشكيك ليس في جانب الصدق والكذب، بل في جانب أشبه بالأخلاق يختص بتحوير ما ليس بحقيقي حتى يُحوّل إلى حقيقي في

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٥٧.

(٢) جامع البيان: ١٠/ ٣٤٣

أعين الناظرين، ولم يكن أمام فرعون من خيار آخر غير نقل موسى -عليه السلام- من صفة النبي الصادق إلى صفة الساحر العليم.

وبذلك يتم لفرعون بلوغه لآخر درجات الصراع مع موسى-عليه السلام-، لقد بدأت تلك الدرجات بالجدال الذي حاول فرعون أن ينهيه ويخرج موسى منه عبر التهديد، فحوله موسى -عليه السلام- إلى محاولة إقناع يستعمل فيها الآيتين ذواتي الطابع المادي المدرك المحسوس ليشكك فرعون في مصدر تلك المادية المحسوسة ناسباً إياها إلى السحر.

وبذلك يصل الصراع الموسوي الفرعوني إلى هذا الشكل، ويبقى جانب آخر من صراع خفي غير معلن بين فرعون وملئه من أهل مجلسه الذين كان عليهم أن يحسموا أمرهم ويختاروا أحد الطرفين، ويبدو أن قعقعة الشن قد آتت ثمارها، ومما يلفت الانتباه أن أهل المجلس الفرعوني كانوا مخاطبين بشكل مباشر من موسى -عليه السلام-، ثم بشكل مباشر أيضاً من فرعون الذي حولهم إلى متوعدين بشكل غير مباشر، ولم ينطقوا بكلمة خلال مرحلة الجدال ومرحلة الوعيد، حتى إذا أخرج فرعون عدوه موسى-عليه السلام- من ساحة الصدق النبوي إلى ساحة الكذب السحري دخل هؤلاء الملأ إلى ساحة الصراع من أبواب الغرابة اللغوية فبعد أن رأى الجميع الآيتين أعلن فرعون موقفه الختامي:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة الشعراء: الآيتان ٣٤،٣٥).

وفي سورة الأعراف:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (سورة الأعراف: الآيتان ١٠٩، ١١٠).

لقد استوقفت هذه النقطة كبار المفسرين من خلال غرابة لغتها، فأنت تشعر باختلاط كلامه بكلامهم، وذلك من خلال نسبة القول إلى فرعون في سورة الشعراء فيما ينسب القول نفسه إلى الملأ في سورة الأعراف.

قال الزمخشري: "فإن قلت قد عُزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعُزي ههنا إليهم، قلت: قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثَمَّ وقولهم هنا، أو قاله ابتداء فتلقاه من الملأ فقالوه لأعقابهم أو قالوه للناس"(١).

وقال ابن كثير: "بعد ذلك قال للملأ حوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته"(٢).

وهنا ينشئ القرآن تداخلاً بين كلامه وكلامهم، مع الاحتفاظ لفرعون بمصدرية الكلام عبر قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ ﴾ فهذه اللام تحتفظ لفرعون بتلك المصدرية. فهي تستعمل لغرض التبليغ: "وهي الجارة لاسم السامع لقول أو ما في معناه نحو: قلت له، وأذنت له، وفسرت له"(٣).

وفي نفس النقطة ينشئ القرآن تداخلاً آخر بين كلامه وكلامهم فيحكي على

(١) الكشاف: ٢/ ١٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٥٥.

(٣) مغني اللبيب: ١/ ٢٨١.

لسانهم قول فرعون ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ قال الطبري:

"فماذا تأمرون: والخبر بذلك عن فرعون، ولم يذكر فرعون، وقلما يجيء مثل ذلك في الكلام"[1].

فنحن إذن أمام ظاهرة لغوية فريدة بشهادة الطبري، وذلك للتعبير عن توحد الموقفين: فقد أثبتت اللغة الحاكية لفرعون قوله بداية ثم أثبتت لهم نفس القول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، فهم يرددون قوله كما هو، حتى إذا قال لهم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ لم تتدخل اللغة لتصنع فاصلاً بين قوله وقولهم، وإنما أوردت كلامه ضمن كلامهم للتدليل على نوع من (التماهي)[2]. في الموقفين، فهم يتبنون ما يقول وينادون بما ينادي به، وهذا دليل على شدة خوفهم من طغيانه وسجنه، واللغة الحاكية تعبر عن هذا التماهي عبر نوع من التداخل الذي تصنعه بين قوله وقولهم.

وعلى الفور بادر الملأ بإثبات ولائهم فكانوا هم أصحاب اقتراح

(١) جامع البيان: ١٠/ ٣٤٣.

(٢) التماهي مصطلح ذائع من مجال التحليل النفسي، وولج إلى مجال تحليل الخطاب الشعري عبر التفسير النفسي للأدب، وتشير دلالته إلى تقمص إنسان لشخصية آخر، وشاع استعماله في الآونة الأخيرة حتى في المجال الإعلامي، ومجال التحليل السياسي، وتماهي الشيئين هو ذوبان ماهية أحدهما في ماهية الآخر، وهذا النوع من التماهي المتجسد في ذوبان موقف الملأ في موقف فرعون هو "التماهي بأحكام المتسلط"، انظر "مدخل إلى مناهج النقد الأدبي"، ترجمة رضوان ظاظا، ص ١٠٣، وانظر كذلك "سيكلوجية الإنسان المقهور" لمصطفى حجازي، ص١٢٧.

المجيء بالسحرة، وهو أول حضور لهم في الحوار، فقد ظلوا مستمعين لما يدور في المجلس بين موسى وفرعون كما ظلوا مستمعين لما يخاطبهم به موسى -عليه السلام-، وقد حاول فرعون أن يجرهم منه إلى القناعة بغير الحقيقة، ويبدو أن قعقعة الشن قد أثمرت وآتت أكلها فقد تحول الملأ من الصمت السلبي تجاه فرعون إلى النطق الإيجابي ظاهراً والسلبي حقيقة كما سنري لاحقاً.

لقد بدأت السلطة الفرعونية تتحرك عبر بعث الحاشرين، وبدأت عدوى مناصرة فرعون تتحرك أيضاً من الملأ إلى القبط عموماً وذلك ما نلمسه في قوله -تعالى- في سورة الشعراء: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ (سورة الشعراء: الآيتان ٣٨،٣٩).

وإيراد الفعلين (فَجُمِعَ، وَقِيلَ) على صيغة ما لم يُسمَّ فاعله دليل على تحرك واسع في المجتمع القبطي، الهدف منه مناصرة فرعون إضافة إلى الحراك المادي الحقيقي للحاشرين في أرجاء مصر لجمع السحرة، وتتحد هنا عدة دلالات لغوية لتدل على أن فرعون قد سعى لجمع الأنصار من حوله.

الدلالة الأولى: وهي (الحشر) الوارد في قوله -تعالى- في سورتي الأعراف والشعراء:

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ (سورة الأعراف: الآيتان ١١١،١١٢).

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ

عَلِيمٍ ﴾ (سورة الشعراء: الآيتان ٣٦،٣٧).

والحشر لا يقال في اللغة إلا للجماعة[1].

الدلالة الثانية: الجمع في قوله -تعالى-: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٦٠).

وذلك في الإشارة القرآنية لتجميع فرعون للسحرة من أرجاء مصر.

الدلالة الثالثة: تجميع السحرة ليوم النزال:

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٣٨).

الدلالة الرابعة: تجميع القبط لحضور النزال: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٣٩).

الدلالة الخامسة: قول السحرة في يوم النزال: ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾ (سورة طه: الآية ٦٤).

وهذه الدلالات مجملة تشكل توضيحاً للمشهد العام في مصر، حيث نجح فرعون في (صناعة) رأى اجتماعي عام بدأ بتكوينه بعد رؤية الآيتين:

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (سورة الشعراء: الآيتان ٣٤،٣٥).

ففي سبيل استقطاب الملأ لمناصرته ومن ورائهم القبط يقبل فرعون بأن ينكسر انكسارين:

---

(١) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني: مادة (حشر).

الانكسار الأول: نسبة الأرض إلى المصريين، وهو الخارج قبيل قليل من مناظرة نجح فيها موسى -عليه السلام- في ترسيخ مفهوم الألوهية للواحد -سبحانه وتعالى- بأنه رب المشرق والمغرب، وأنه رب السماوات والأرض، وفرعون ينسب الأرض إلى سكانها وهو الذي يقول لنفس المخاطبين في آية أخرى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (سورة القصص: الآية ٣٨).

الانكسار الثاني: حين أراد استشارتهم خاطبهم قائلاً ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فهو يعطيهم السلطة ليأمروا ويشيروا، والاستشارة من عادات أهل السياسة في كل زمان ومكان، وهو بذلك يخلع عنه ثياب التأله ليلبس ثياب المكر السياسي مثبتاً أنه حاكم لأرض مصر ليس هو برب ولا إله، ويتجلى هذا المكر السياسي في مخاطبة الملأ من حوله داخلاً إليهم من مدخل الكراهية لبني إسرائيل الذين هم قوم موسى -عليه السلام-، وحين يذكر لهم الأرض في قوله (أرضكم) فهو يذكر لهم الوطن الذي هو وطن المصريين، بينما بنو إسرائيل هم المستعبدون المستذلون، فهو بذلك يثير شعور أعلى طبقات المجتمع على أدنى طبقاته وفقاً للنظام الطبقي الذي أنشأه فرعون:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ (سورة القصص: الآية ٤).

وهذا التشييع هو إحدى وسائل فرعون لإحكام قبضته على مصر. وفي هذا الموقف تراه يخلع قناع المتأله ليلبس قناع القائد الوطني مثيراً حماسة

أهل مجلسه، ولكن وراء تبديل الأقنعة انكساراً وإذلالاً لفرعون فالتحول من الألوهية إلى القيادة يعتبر نزولاً في المقام لم يلتفت إليه أحد من الملأ في ردة فعل تنبئ عن إدراك عقلي لثغرات ذلك التأله، فلا ريب أن عقولهم قد استجابت لمخاطبات موسى لكنهم يخافون بطش فرعون فهاهم يسعون لكسب وده بعد الإرهاب السياسي الذي مارسه على حراك العقول، هذه المعطيات هي التي أدت إلى دفعهم باقتراحهم بين يدي فرعون الذي نظر إليه نظرة الغريق إلى القشة في عرض المحيط العظيم، فما كان منه إلا أن تبناه:

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ (سورة طه: الآيتان ٥٧،٥٨).

وانظر إلى ذلك الحضور اللغوى الواضح لجماعة المتكلمين. إن فرعون يجبن عن مواجهة موسى -عليه السلام-، فيتوارى خلف ضمائر المتكلمين ويخطط بكل ما أوتي من مكونات المكر السياسي ليحشد من حوله ذلك الجمع السالف الحديث عنه.

النزال: الزمان والمكان:

لا نتوقع اتزاناً فكرياً أو نفسياً من فرعون في ظل الوضع الذي أصبح فيه بعد رؤية الآيتين التي أعقبت الهزيمة الجدالية، وفي ظل هذا الوضع المتزلزل يقبل فرعون اقتراح الملأ بمقارعة موسى -عليه السلام- بسحرة يجمعون من أرجاء مصر، ولم يبادر الملأ لتنفيذ الاقتراح بل كانت المبادرة من

فرعـــون: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ (سورة طه: الآية ٥٨).

فهو يعطي موسى الخيار ليحدد مكان وزمان النزال، وهذا التخيير يحتفظ لفرعون بمظهر الرجل القوي ظاهراً، أما باطناً فهو ينبئك بخوف فرعون من موسى -عليه السلام- بعد ما رآه من الآيتين ومن قوة الحجج، وإلا فمن ينتظر من فرعون نزاهة مع خصم له وهو المتأله العالي، ومن ينتظر منه أن يصف موقع النزال بقوله: ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾.

قال القرطبي: "مكاناً مستوياً يتبين للناس ما بيناه فيه. . . يقال سوى يسوي إذا عدل، يعني مكاناً عدلاً بين المكانين فيه النصفة، فأصله من قولك جلست في سواء الدار، أي: في وسطها"[١].

وما لفرعون والعدل وهو الظالم المفرق بين طوائف مجتمعة؟ وما لفرعون والوضوح وهو الكائد الماكر؟ إنه الخوف من رب موسى -سبحانه وتعالى- من جهة، وغلبة فرعون على أمره من جهة أخرى، فالأمور تتفلت من يده، ولم يعد يحرص إلا على صورته أمام الملأ، ثم أمام شعبه عموماً. فالخوف من رب موسى هو الذي أجرى الحق على لسانه والعدل على حكمه، ولن تجد في غير هذا الموضع في القرآن كله ذكراً لحدث يوهم ظاهره بعدل فرعون.

فأجابه موسى -عليه السلام- جواب الآمن الواثق:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢١٢.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ (سورة طه: الآية ٥٩).

لم يحدد فرعون شروطاً للمنازلة بل تركها مفتوحة، فاستغل موسى هذا التعميم الذي في كلام فرعون فحدد يوم الزينة الذي هو عيد للقبط ومناسبة لاجتماعهم، لقد أراد أن يكون للمنازلة جمهور يشاهدها، فاختار لها قاعدة لهذا الجمهور تضم من أراد الحضور، وتضم حتى من لم يرد وإنما أتي به يوم الزينة. وكأنه يقول لفرعون: (سأفضحك أمام رعيتك ممن هم عبادك بزعمك).

ولم يترك -عليه السلام- الأمر معلقاً بيوم الزينة مجملاً، بل حدد الضحى، قال ابن الجوزي:

"وإنما علقه بالضحى ليتكامل ضوء الشمس واجتماع الناس فيكون أبلغ في الحجة وأبعد عن الريبة"(١).

وقال الشوكاني: "وخص الضحى لأنه أول النهار، فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع"(٢).

لقد اختار النبي الموحى إليه زماناً يتسم بالتوضيح، ولا شك أن النور من فواضح السحر الذي يعتمد على الغموض والتعمية وخداع الحواس، ولو كان -عليه السلام- ساحراً لاختار زماناً يتناسب مع العلاقة بين السحر والحواس. ومن جهة أخرى فالضحى أول النهار كما أشار الشوكاني

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٦٣.

(٢) فتح القدير ٣/ ٤٣٩.

مما يجعل أمام الفريقين متسعاً من الوقت يمكنهما من إطالة النزال، وهذا يعني أن موسى -عليه السلام- ليس خائفاً من النزال طال أو قصر، بل هو يختار ميقاتاً زمانياً يسمح بطوله. إنه يريد أن يبلغ فرعون وملأه عبر اللغة الحاكية رسالة تقول: (لست ساحراً، ولست خائفاً من سحركم).

وهناك عنصر ثالث يضاف إلى عنصري الزمان والمكان، وهو عنصر الشهود حيث اختار موسى شهوداً من أهل مصر وليس من بني إسرائيل، وحتى لو كان بين الحاضرين بعض الإسرائيليين فلن يجاهروا بمساندتهم لموسى -عليه السلام- خوفاً من فرعون، وهذا يعني أن موسى يقف أمام هذ الحشد الكبير من المصريين بغير دعم معنوى من قومه، بينما كان بإمكانه أن يستغل تخيير فرعون له في قوله ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾، فيختار شهوداً من قومه، لكنه اكتفى بمعية الله -تعالى-: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٤٦).

فأراد أن يكون للشهود مهمة أخرى غير الدعم المعنوي، وهي الشهادة على هزيمة فرعون وسحرته، وهي شهادة ستكون أنكى لفرعون لو أنها أتت من قومه، لذلك اختار موسى -عليه السلام- شهوداً من المصريين.

وهنا يصمت فرعون ويتحول من الكلام إلى العمل:

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٦٠).

وهذه الآية تحتوى على ثلاثة من الحروف: (الفاء: فتولى، فجمع. ثم: ثم أتي).

وهذه الحروف أشبه بالمفاصل التي توضح مراحل ذلك الكيد مما يعني أنه كان كيداً منظماً ومحكماً يدل عليه ذلك التولى، قال الشوكاني:
"أي: انصرف عن ذلك المقام ليهييء ما يحتاج إليه مما تواعد عليه، وقيل: معنى (تولى) أعرض عن الحق، والأول أولى"(١).

وهذا يعني أن لفظ "التولي" يحمل دلالة على حركية من فرعون، وهي حركية جسدية مادية. والآية تظهر فرعون في صورة لغوية تثير في قارئها نوعاً من التخييل حتى تظهر في خياله صورة فرعون وهو خارج من مجلسه آخذاً الأمر على محمل الجد يكيد ويخطط ويدبر للنزال، فالتولي عبارة عن صورة لفرعون وهو خارج من مجلسه الذي هزم فيه بينما يصور الإتيان مجيئه يوم النزال، وبين التولى والإتيان حركية مستنبطة من ظاهر الآية، إنه العياء المذل لذلك التأله: لو كنت إلهاً حقاً ففيم العياء؟ وموسى -عليه السلام- آمن مطمئن لتأييد الله ومعية السمع والبصر الإلهيين.

ويظهر لنا جزء من هذا العياء المذل في حديث فرعون مع السحرة قبل يوم النزال، ففي القرآن موضعان تحدثوا فيهما مع فرعون، أحدهما في سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٤١).

قال ابن كثير إن هذا الحوار قد دار بين الطرفين في مجلس فرعون قبل يوم من النزال(٢).

---

(١) فتح القدير: ٣/ ٤٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٤٠.

وقال الزمشخري: " ولما كان قولهم: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ في معنى جزاء الشرط لدلالته عليه، وكان قوله ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ معطوفاً عليه ومدخلاً في حكمه دخلت "إذن" قارَّةً في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء، وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى القربة عنده والزلفى"[1].

أما الموضع الثاني فهو في سورة الأعراف:

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (سورة الأعراف: الآيتان ، ١١٣، ١١٤).

فصياغة آية سورة الشعراء توحي بضعف خفي في موقفهم فلا تخبرنا الآية بتوجههم إلى فرعون مباشرة بالكلام، بل تخبرنا بمجيئهم، مما يوحي بأنهم لم يقصدوا فرعون بهذا المجيء لما في المجئ من التوجه المضاد لهيبتهم إياه، أما في سورة الشعراء فقد وقع اسم فرعون في موقع المفعول للفعل (جاء) وهذا يعني توجههم إليه بالخطاب، وقد خاطبوه -على خلاف ما في سورة الشعراء- بغير شرط ولا جزاء وقد تخلوا عن صيغة السؤال متحولين من الإنشاء إلى الخبر، وكأنهم يقولون: "هذا قرارنا فاقبل أو ارفض"، لقد أحسوا بقوة موقفهم أمام فرعون، فأرادوا تحقيق بعض المكاسب. وغياب صيغة الشرط والجزاء يعني أن تقريبهم لم يعد مرتبطاً بغلبتهم بل هم الآن من المقربين، وهذا ما نلمسه في غياب (إذن) التي توحي بشرط من فرعون

(١) الكشاف ٣/ ٣١٢.

يربط تقريبهم بغلبتهم، لكنه مع ضغطهم اضطر إلى سحبها من حديثه معهم في سورة الأعراف الذي يرجُح عندي أنه كان يوم النزال نفسه أو قريباً منه.

يوم النزال:

كان من الطبيعي أن يتحدث موسى -عليه السلام- إلى السحرة حديث النبي إلى مكذبيه:

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٦١).

إن موسى -عليه السلام- يتوجه بهذا الكلام إلى السحرة وهذا يعني أنه قد قرر أن يبدأ بمحاولة إفهام خصمه خطورة ما يقوم به لقد خاطبهم موسى -عليه السلام- بلغة تنتهج التقريع والتخويف فقوله ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ ذو دلالة شديدة الإخافة، قال الراغب:

"السحت: القشر الذي يستأصل"(١).

وقال ابن منظور: "سحت الشيء يسحته قشره قليلاً قليلاً. . . وقوله -عز وجل- ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾. . . فيسحتكم يقشركم، ويسحتكم يستأصلكم"(٢).

أما كيفية هذا القشر فلم يتطرق لها موسى -عليه السلام-، بل ترك الأمر لأقصى درجات تصورهم، هذا مع الوضع بالاعتبار أن مادة (سحت) لم ترد في القرآن في دلالة الإهلاك إلا في هذا الموضع. وما أظن أن شعوراً

(١) المفردات، مادة (سحت) .

(٢) لسان العرب: مادة (سحت) .

سيتحرك داخل هؤلاء السحرة غير الخوف الحقيقي من رب موسى، فكيف تصرفوا بعد هذا الخوف.

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٦٢).

فماذا قالوا في نجواهم؟ ولماذا الإسرار والتنازع في تلك النجوى؟ قال القرطبي:

"قالوا إن كان ما جاء به سحراً فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر، وهذا الذي أسروه، وقيل الذي أسروه قولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾. . . وقيل الذي أسروه قولهم: إن غلبنا اتبعناه"[(١)].

وقال الزمخشري: "والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول، ثم قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾،فكانت نجواهم في تلفيق الكلام وتزويره خوفاً من غلبتهما وتثبيطاً للناس عن اتباعهما"[(٢)].

ويمكن أن نستخلص رأياً وسطاً من تلك الآراء، فالآية تشير إلى تنازعهم، والتنازع لفظ شديد الحدة يحمل دلالة الخلاف والأخذ والرد، وهذه الحدة هي مفتاح إدراك تلك النجوى، قال ابن منظور:

"المنازعة المجاذبة في الأعيان والمعاني. . . والمنازعة في الخصومة مجاذبة الحجج في ما يتنازعه الخصمان"[(٣)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١١/ ٢١٥.

(٢) الكشاف، ٣/ ٧٢.

(٣) لسان العرب: مادة (نزع) .

فما بالهم يتنازعون ويختلفون في تلك اللحظة الحساسة الحاسمة، قال الطاهر بن عاشور:

"تفرع عن موعظة موسى تنازعهم الأمر بينهم، وهذا يؤذن بأن منهم من تركت فيه الموعظة بعض الأثر، ومنهم من خشي الانخذال، فلذلك دعا بعضهم بعضاً للتشاور في ماذا يصنعون" (١).

إن هذا التنازع دليل على خلاف دب في وسط السحرة بين فريقين منهم قالا بقولين متضادين يجسدان انقساماً فيهم بين تصديق موسى وتكذيبه –عليه السلام–، أي: بين كونه نبياً وبين كونه ساحراً. وترتب على هذا الخلاف نتيجة يصعب البتُّ في أمرها في لحظات ما قبل النزال، فهم أمام وعد فرعوني بالرفعة والترقي في سلم الشيع الفرعونية من جهة، وأمام وعيد رباني موسوي من جهة أخرى، فأي الفريقين سيختارون؟ هذا الاختيار كان هو سبب التنازع فخرجوا بحل وسط: لا سبيل للرجوع وعلينا أن ننازل موسى، فإن كان نبياً فسوف يغلبنا وحينها سنتبعه ونؤمن به، وإن انتصرنا عليه فقد ثبت لنا ولفرعون أنه دعى كاذب، وننال عندها رفعة الشأن في وعد فرعون لنا.

وبناءاً على ذلك قرر السحرة أن يعتبروا النزال اختباراً لموسى وهارون –عليهما السلام– وإذا كانوا سوف يختبرونهما فلينطلقوا من فرضية أنهما ساحران إلى أن تأتي نتيجة النزال بالحقيقة، ويبدو أنهم اتفقوا على ألا يظهر عليهم هذا النزاع لذلك كان الإسرار في النجوى التي جاهروا بعدها بما

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٥٠.

اتفقوا في نجواهم على أنه اختبار للنبيين:

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة طه: الآيتان ٦٣،٦٤).

لقد بدأ السحرة كلامهم بعد النجوى بالنتيجة التوافقية التي خرجوا بها من تلك النجوى بعد التنازع، وهي فرضية أن موسى وهارون -عليهما السلام- ساحران، ثم عقبوا على ذلك بدعوة إلى وحدة الصف وجمع الكيد، وذلك حتى لا يؤثر التنازع على جهودهم في مقارعة السحر المفترض، فهذه الدعوة إلى الوحدة كانت ترياقاً لسم التنازع، إضافة إلى دلالة مستنبطة في مفهوم الصف، وهي دلالة التنظيم الذي يوحى بدوره بدرجة عالية من الاحترافية في ممارسة السحر، فالتنظيم والتوحد يجعلان من موسى -عليه السلام- يواجه جمعهم متحداً منظماً مُجيداً للسحر.

بعد ذلك يظهر السحرة نوعاً من المنطق الذي يعكس الجانب المؤيد لموسى -عليه السلام- المتأثر بموعظته، فحديثهم عن الصف والكيد لا مكان لموسى فيه لذلك قالوا بعده: ﴿ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾.

وإنما يحضر موسى من خلال التعميم حيث لم يحددوا الطرف المستعلي، وهذا يعني أن الطرف المنتصر هو من سيعلو شأنه، فإن انتصرنا فسوف نستعلي بعلو فرعون، وإن انتصر موسى فسوف نؤمن به أمام الجمع فيعلو على فرعون بانتصاره، ويتوارى خلف تلك الكلمات وضعهم لاحتمال اتباع موسى إذا تجاوز اختبارهم. كل هذا سيتم (اليوم)، فالحسم

لهذا الصراع النفسي الفكري يجب أن يكون (الآن/ هنا).

ولنتأمل في التضاد الدلالي بين قول موسى مخاطباً إياهم: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾

وبين قولهم: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ .فالفلاح ضد الخيبة، والافتراء حكم ينزل بأحد طرفيه في دونية تطول المتهم بالافتراء أو تطول راميه بهذا الافتراء، فينحط أحدهما في تلك الدونية، فالافتراء جاء من السحرة على نبي مرسل بأنه يكذب على الله، أما الاستعلاء فيعني الترقي في الجانبين الأخلاقي والاجتماعي، لقد أجابوا موسى -عليه السلام- عبر لغة خطابهم إياه: إن القويَّ هو الذي سينتصر، لذلك جاءه خطاب ربه -تبارك وتعالى- مؤيداً لقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٦٨).

قال الراغب: "وقيل إن علا يقال في المحمود والمذموم، وعلى لا يقال إلا في المحمود"[(١)].

فالطرفان معاً يفعلان الفعل (علا) إلا أن علو موسى -عليه السلام- جاء عبر أفعل التفضيل في حكم إلهي بالغلبة والرفعة والانتصار.

ثم تحول السحرة يختبرون تأله فرعون حين أقسموا بعزته:

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٤٤)

وبذلك يكتمل لهم اختبار الطرفين، وما أظنهم في القرار البعيد من

(١) المفردات: مادة (علا).

نفوسهم كانوا يثقون بتلك العزة وهم من كسروها حين ابتزوا فرعون قبل النزال، ولكنهم أرادوا تأكيد انكسار تلك العزة أو تراجعها عن ذلك الانكسار، وهذا أمر يجعل كلا الطرفين تحت اختبار السحرة، فموسى -عليه السلام- تحت اختبارهم بمقارعته بالسحر، وفرعون تحت اختبارهم بالمقارعة باسمه، أي باسم القوة التي يزعم أنها كامنة وراء تألهه، وقد اختاروا صفة العزة لأن فرعون يحتاج إليها أمام عدوه ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾.

وكل هذا ليس سوى مقدمات للنزال بدايةً بابتزازهم لفرعون مروراً بمخاطبة موسى إياهم ثم نجواهم ونهاية بالقسم بعزة فرعون.

ويحولنا الوصف القرآني للأحداث بعد ذلك إلى النزال بين موسى والسحرة، وتدل اللغة الحاكية على سرعة هذا النزال الذي بدأ بتخييرهم لموسى:

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١١٥).

وهذا التخيير ذو وجهين: فهو إما أن يكون دليلاً على تأدبهم مع موسى -عليه السلام- وهذا وجه مستبعد لأنه يتنافى مع ظاهر المحكي من الأحداث الدالة على اختبارهم له، وإما أن يكون نوعاً من السلوك المتسق مع ذلك الاختبار، وكأنه -عليه السلام- يشعر بهذا الاختبار فيعطيهم الأولوية فيلقون حبالهم وعصيهم:

﴿ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴾ (سورة

طه: الآية ٦٦).

وفي استعمال (إذا) الفجائية ما يوحي بسرعة تحرك الحبال والعصي، وبنفس الطريقة نلمس سرعة في ردة الفعل المضادة:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١١٧).

قال الألوسي: "أي فألقاها فصارت حية فإذا هي. . . وإنما حذف للإيذان بمسارعة موسى -عليه السلام- إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب، كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الغريبة، واللقف كاللقفان: التناول بسرعة"[(١)].

وقال البقاعي: "تلقف: أي تلتقم التقاماً حقيقياً شديداً سريعاً"[(٢)].

إذن فاللغة تشير إلى سرعة وقائع النزال الذي هو جوهر المواجهة، والسرعة التي تم بها تدل على بلوغ الطرف الفرعوني قمة جهوده، كما تدل على القدرة الإلهية على الإحاطة بكل الجهود التي يقوم بها فرعون.

والنتيجة هزيمة أخرى لفرعون تصل قمتها في سجود السحرة ممثلي فرعون، وسجودهم يعني انكساراً آخر للعلو الفرعوني، والسجود انكسار مادي يتمثل في انحناء وخرور نحو الأسفل كما مر بنا في دلالة الالتقاط. وهناك تكرار لافت للنظر في سورة الأعراف حيث يكثر ذكر الإلقاء:

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٢٦.

(٢) نظم الدرر: ٨/ ٢٨.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (سورة الأعراف: الآيات ١١٥،١٢٠).

ففي معرض ذكر أحداث النزال بين موسى والسحرة يذكر الإلقاء ست مرات، فبماذا يوحي ذلك التكرار، قال الرازي:

"الإلقاء يدل على طرح الشيء من الأعلى إلى الأسفل"[١].

وحتى السجود يتم التعبير عنه بالإلقاء، وذلك ليشابه إلقاء السحرة حبالهم وعصيهم وليشابه إلقاء موسى لعصاه، ثم ليشابه بعد ذلك وقوع الحق ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ والوقوع هو "ثبوت الشيء وسقوطه"[٢].

قال الرازي: "قال أهل المعاني: الوقوع: ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقره"[٣].

إذن فهي سبعة مواضع تكرر فيها ذكر هذا النزول من الأعلى إلى الأسفل،والوقوع هو الموضع السابع، فما حكمة هذا التكرار؟ كأنه يلفت

---

(١) التفسير الكبير: ٢٠/ ١٩١.

(٢) انظر المفردات للراغب مادة (وقع).

(٣) التفسير الكبير: ١٤/ ٣٣٦. وقد قال السيوطي نقلاً عن ابن الصلاح: "وحيث رأيت في كتب التفسير "قال أهل المعاني" فالمراد به مصنفو الكتب في معاني القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنباري". انظر: الإتقان ٣/ ٧٢٨.

أنظارنا إلى أن الصراع بين موسى النبي المؤيد وبين فرعون إنما هو صراع أرضي لايعلو فيه عن تلك الأرضية إلا من أعلاه الله، والسميع البصير – سبحانه وتعالى– في علاه يسمع ويري فينزل الحق ليقع على أرض النزال مؤيداً الطرف النبوي من ذلك الصراع، فيؤول الحق السماوي إلى مستقر أرضي لا فكاك لفرعون عنه، وهو حق علوى المأتي، وعلوه علو حقيقي لا يشبه علو فرعون الدعى المتأله. فوقوع الحق يوحي بقوة في إنزال أمر الله – سبحانه وتعالى–، فهذا الحق إنما نزل بساحة فرعون ليحيط به منزلاً إياه إلى درك أكثر سفولاً من الأرض التي نزل عليها، وهو درك مادي يخضع له علو فرعون فينزل مستقراً في ما هو دون الأرض، أي: في مستقره الأخير في قاع البحر يوم غرقه، من أجل ذلك كان تكثيف اللغة لذكر التحول من الأعلى إلى الأسفل.

وفرعون مغرق في ماديته يتوعد وينكل:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (سورة طه: الآيات ٧١،٧٦).

لقد نجح موسى -عليه السلام- في اختبار السحرة، وأصبحوا على يقين من أنه نبي وليس ساحراً، فثارت ثائرة فرعون فتوعدهم بالصلب وتقطيع أطرافهم من خلاف.

إن أول ما يلفت الأنظار هو المقارنة بين الصورتين:

صورة الوعيد الإلهي ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾.

وصورة الوعيد الفرعوني ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾.

فهل من الممكن أن يكون فرعون قد تعمد المجيء بعذاب يشبه الوعيد الإلهي بالسحت؟ يرى القرطبي إن فرعون كان مخاطباً مع السحرة بالوعيد على لسان موسى -عليه السلام- ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾، وهذا قول يرجُح معه تعمد المجيء بهذا الوعيد المشابه، ويؤيد ذلك أيضاً ما ذهب إليه فرعون من المقارنة بين العذابين المتوعد بهما ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ والتشابه بين السحت والتقطيع لا يخفى فكلاهما نيل من الأجساد في حال حياتها، فيقارن السحرة بين الوعيدين فيجيبون فرعون قائلين ضمن ردهم على وعيده: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، ثم يذكرون الحال الوسط الذي ينعدم فيه الموت كما تنعدم فيه الحياة في جهنم و﴿ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ في الجنة.

فكأن هؤلاء السحرة المؤمنين يقولون لفرعون: إنك واهم لو ظننت ان السحت هو كل ما سيصيبب المجرمين بل هناك عذاب أخروي، فلئن كان فرعون صاحب عذاب طويل، فالله خير منه بصفاته وأبقى منه بذاته، وعذاب الله أبقى من عذاب فرعون الذي ينتهي بالموت بينما يكسر العذاب

الإلهي الجدار الفاصل بين الموت والحياة فيجعل المعذب بينهما لا هو حي ولا هو ميت. فقد نزع فرعون إلى إثبات امتلاكه حداً أقصى- من الزمن لإجراء العذاب على هؤلاء المؤمنين، فأجابوه: إن عذابك محدود لأنه ينتهي بالموت. ثم يضيفون مقابلة بين ذلك العالم الجهنمي وبين الجنة التي يطمحون إلى درجاتها العلى، والنتيجة أنهم يختارون تجنب العذاب الأطول. ومما يدل على هذه المنطلقات الزمانية أن الطبري يقول في تفسيره لقوله – تعالى-: ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾:

"إنما تقدر أن تعذبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفنى، ونصب الحياة الدنيا على الوقت"[1].

أي: على الظرفية الزمانية. وفضلاً عن ذلك فكلام السحرة يوحي بإيمان يرتكز على يقين عقلي بدلالة قولهم: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ فهم يستعملون دلالة الإجرام التي هي في هذا المقام أدق من دلالة الكفر قال القرطبي في تفسير قوله -تعالى-: ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (سورة الجاثية: الآية ٣١):

"أي مشركين تكسبون المعاصي، يقال: فلان جريمة أهله، أي: كاسبهم، فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي، وقد قال الله -تعالى-: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة القلم: الآية ٣٥). فالمجرم ضد المسلم فهو المذنب بالكفر إذن"[2].

---

(١) جامع البيان: ١٦/ ١١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ١٧٦.

والإجرام أدق من الكفر هنا لأنه يدفع مظنة إكراههم الذي سيكون دليلاً على براءة ساحتهم فهم يخاطبونه بقولهم ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ ونلمس من جهة أخرى تأييداً قرآنياً لجانب السحرة في حديثهم مع فرعون الذي يقول لهم: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾. وفي نفس السورة (سورة طه) يقول -تعالى-: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (سورة طه: الآية ١٢٧).

فهذه الآية تؤيد ما قالوه في أمر امتداد العذاب الإلهي، وفي نفس الوقت فهي تشكل إجابة على فرعون عن قوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾.

وعلى قوله هذا جواب قرآني آخر جاء في سورة غافر التي لم يذكر فيها السحرة، وذلك في معرض الحديث عن مؤمن آل فرعون:

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (سورة غافر: الآيتان ٤٥،٤٦).

أمَّا أيُّ العذابين أبقى؟ فيجيب عنه الحكم الإلهي بالعرض على النار غدواً وعشياً، حتى إذا قامت الساعة تحولوا إلى عذاب دائم، وأما أيُّ العذابين أشد؟ فيجيب عنه قوله -تعالى-: ﴿ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ وتأمل في الفرق اللغوي بين القولين فالعذاب في كلام فرعون جاء منكراً، أما في الرد الإلهي عليه فقد جاء معرفاً، فضلاً عن مجيء كل من العذاب والشدة

متلازمين، فالعذاب مضاف إلى الشدة التي اتخذت صيغة "أفعل التفضيل" مما يشكل بينهما تعاضداً لغوياً حيث قوَّى كل منهما دلالة الآخر، ومن العجائب التي لا تنقضي للقرآن أن أهل السنة قد استدلوا بهذه الآية على عذاب القبر. قال ابن كثير:

"وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور"[1].

لقد شاءت حكمة المولى أن يكون فرعون عبرة يُستدل بها على امتداد العذاب بين الموت والبعث، وإن الحق -تبارك وتعالى- لقادر على أن يجعل الدليل على عذاب البرزخ في آية لا صلة لها بفرعون خصوصاً بل بالبشرية عموماً، ولكنها النكاية في فرعون الذي قال: ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبۡقَىٰ ﴾ فجعل نفسه تحت طائلة الانتقام الإلهي، وإلى جانب ذلك هنالك عنصر التكرار في الفاصلتين المتتاليتين، فقد ختمت الآية الأولى من آيتي سورة غافر بقوله -تعالى-: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾، ثم ختمت لاحقتها بقوله -تعالى-: ﴿ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ وتكرار الفواصل أمر نادر نسبياً في القرآن، مما يدل على أن لفظة (العذاب) هي المقصودة، ففرعون وآله بين حيق سوء العذاب وبين شدة العذاب لا فكاك لهم عن أيٍّ منهما. وفي لفظ (الحيق) أو (الحيوق) عنصر دلالي يشير إلى بعد زماني، قال القرطبي: "يقال حاق يحيق حيقاً وحيوقاً إذا نزل ولزم"[2].

(١) تفسير القرآن العظيم: ٧/ ١٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣١٨.

وهـذا الحيـق نفسـه يشـير إلى بعـد مكـاني لأن لـه معنـى آخـر هـو (الإحاطة)[١].

لقد جاء هذا التكرار في الفاصلتين المتتاليتين ليناسب محتواهما، فالحيق يعني اللزوم من جهة الزمان ويعني الإحاطة من جهة المكان، هذا إضافة إلى عنصر الشدة الذي يبدو في صورة ظاهر لغوي ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ من أجل ذلك تكرر لفظ العذاب: ليوحي أولاً بالمضاعفة في مقدار ذلك العذاب، وليدل على أن فرعون وآله يمرون بعذاب البرزخ قبل الساعة، ثم هم إلى خلود في ذلك العذاب بعد قيام الساعة. وكذلك فإن هذا التكرار يوحي بالإحاطة التي لا مهرب منها وكأن هذا العذاب يسد على آل فرعون المدخل فلا يرجعون منه، ويسد عليهم المخرج فلا يخرجون منه، فيظلون بينهما في الدنيا والآخرة.

إن المتأمل في حديث السحرة المؤمنين مع فرعون يجد في ذلك الحديث أعماقاً دلالية تصفها لغتهم التي تحدثوا بها، وتؤيدها اللغة القرآنية في مواطن أخرى، فقد مثلوا عمقاً دعوياً فريداً نبه فرعون إلى كثير من المواطن التي كان يجب عليه الالتفات إليها، وذلك حين ذكروا له عاقبة كسب الإجرام عن طريق القلب، فكان ذلك ذكراً لجهنم والخلود فيها وذكروا له الدرجات العلى التي طمعت نفسه إلى بلوغ مثلها في الدنيا، وذكروا له أنهم لن يتخلوا عن حلاوة الإيمان مقابل مكسب دنيوي، بل لن يتخلوا عن حلاوة الإيمان تحت التهديد بالموت. أي منهج دعوى هذا؟ ! لقد مثلوا لفرعون دعوة إلى

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢٧/ ٥٢١.

الهداية بغير أن يقولوا له (آمن)، ومثلوا له قدوة إيمانية بلغت مرتبة اليقين، فذهب بهم إلى أقصى درجات التنكيل: الصلب مع تقطيع الأطراف، وفي التقطيع من خلاف ما يورث شقي الإنساني ألماً يستقل به كل شق عن الآخر، إنه منطق المدرك لطبيعة الإنسان ولدواعي ألمه، ورغم كل هذا الإسراف لم ينجُ فرعون من الهزيمة الثالثة، فقد وقع الحق.

العلو المادي:

تلك الهزائم المتلاحقة أورثت نفس فرعون غير قليل من المرارة التي غلفت في قلبه حلاوة إيمان يتحرك في ذلك القلب كما تحركت الحية بين يديه ويضيء كما أضاءت اليد البيضاء من غير سوء، فأيقن فرعون أن للسماوات والأرض رباً هو أعلى من الأرضية التي غرق فيها هو وآله وملؤه، وأدرك يقيناً أن علو هذا الإله علو حقيقي، فاتجه فكره القاصر إلى صناعة بعد مادي لهذا العلو، وطوعت له نفسه أن يخرج من تلك الأرضية المادية إلى استعلاء مادي كوني لينافس ذلك العلو. لقد أدرك فرعون أن تلك الهزائم التي لحقته إنما جاءت من تدبير قوة كونية وترسخ في اعتقاده هذا الإدراك حتى جاهر به، فخرج من شكل معاجزة لتلك القوة في موضعين من القرآن الكريم في سورة القصص وسورة غافر ورد فيهما ذكر الصرح الذي أراد له فرعون أن يكون وسيلة للتعرف على تلك القوة:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ

إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة القصص: الآيتان ٣٨،٣٩).

وأول ما نشير إليه في هاتين الآيتين هو الجار والمجرور ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وقد تكرر في مقدمة القصة في نفس السورة ثلاث مرات وهذه هي المرة الرابعة ويأتي هنا في مقابل المحاولة الفرعونية للاستعلاء الكوني ليُؤكد بطلانه ويعلن فشله، ويسانده في هذا التأكيد وهذا الإعلان جار ومجرور آخران ﴿ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾، والطين عنصر أرضي، وهو عنصر خلق الإنسان وفي ذكره إشارة إلى بشرية فرعون فضلاً عن أرضيته التي فشل في الخروج عنها كما فشل من قبل في الخروج من نطاق ضعفها المغلوب.

لقد خرج فرعون من أحداث يوم الزينة يجر أذيال الهزيمة فأراد بعد تلك الهزائم المتلاحقة إيهام شعبه بأنه قادر على مقارعة هذا الإله الذي كانت قدرته مسبباً للهزيمة بعد الهزيمة، قال الرازي:

"اعلم أن فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه" [1].

وكلام الرازي في تفسير هذه الآيات يؤكد أن فرعون لم يأمر ببناء الصرح لأنه يريد أن يبلغ الملك القدوس -سبحانه وتعالى-، فهو يعلم أن لا سبيل لبلوغه-جل وعلا-، ولكنه أراد أن يلفت أنظار شعبه إلى قدرته على بلوغ مفهوم للألوهية يقارب المفهوم الذي طرحته رسالة موسى -عليه السلام-، والدليل على يقينه باستحالة بلوغه للسماء قوله -تعالى- في سورة

(١) التفسير الكبير: ٢٤/ ٥٩٩.

غافر:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (سورة غافر: الآيتان ٣٦،٣٧).

فما هي تلك الأسباب التي أراد فرعون بلوغها؟ قال الزمخشري:

"وأسباب السماوات طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها"[١].

وحتى هذه الأسباب التي هي بالضرورة دون السماوات يستبعدها فرعون استبعاداً تفضحه اللغة الحاكية، فهو حين يقول: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ يطيل العبارة مما يدل على اعتقاده بطول المسافة المؤدية إلى تلك الأسباب، وقد أشار الزمخشري إلى أن فرعون لو قال (لعلي أبلغ أسباب السماوات) لأجزأه ذلك[٢]. ولو تأملت هذا التكرار لوجدته موحياً بتردد فرعون في تنفيذ قرار محاولة بلوغ أسباب السماوات، فقد عرفها ب"أل" مما يدل على معرفته بها دلالة تشير بدورها إلى طول تفكره في أمر بلوغها، ثم أدرك أنه يخاطب مرؤوسه هامان بأمر يجب أن يتحرى الآمر فيه الوضوح، ولو أنه اقتصر على تعريفها بأل لما أدرك هامان مبتغى آمره، فكأنه حين قال: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴾ كان يخاطب نفسه

---

(١) الكشاف: ٤/ ١٦٧.

(٢) نفسه.

ثـم أدرك أنـه يتحـدث إلى هامـان فأوضـح بـالتعريف الثـاني مـا لا سـبيل لوضوحه بالتعريف الأول، وهذا الأمر يوحي بأن فرعون قد أبدأ وأعاد بينه وبين نفسه في شأن هذا الاستعلاء الكوني.

ومن جهة أخرى فكأن هـذا التكـرار تعبـير عـن (التأتـأة) الناشـئة عـن التردد في الأمر العظيم الذي أراد فرعـون الإقـدام عليـه، فهـو تكـرار ينبئـك بالاضطراب النفسي الذي عاشه فرعون حتى تلعثم لسانه فلم يكد يعبر عن مراده إلا بعد تـردد يخبرنـا بـأن في نفس فرعـون جانبـاً يـدفعها إلى التراجـع، ولكن غلبت عليه شقوته بدلالة قولـه -تعـالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾ وتزيين سوء العمل دليـل عـلى تـردد فرعـون في الإقـدام عليـه حـين عـانى مـن ذلـك الاضـطراب بـين الحـق والباطـل في نفسه[١].

وتبقى إشارة شـديدة الأهميـة هـي ذكـر فرعـون للطـين، فكـل حـديث القرآن عن الطين يصب في اعتباره عنصراً أوجـد الله بـه مخلوقـاً أو نقـض بـه بنية مخلوق، وهذا أمر يطول شرحه وليس ههنا موضع بسطه[٢]. ويهمنـا في

---

(١) نقلاً عن أطروحتي لدرجـة الماجستير، (التكـرار في القـرآن الكـريم)، جامعـة الخرطـوم، كلية الآداب (٢٠٠٤).

(٢) أما إيجاد الخلق بالطين ففي خلـق الله تعـالى لآدم عليـه السـلام، ثـم في خلـق عيسـى علبـه السـلام للطـين كهيئـة الطـير بـإذن الله ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ ﴾ آل عمران: ٤٩، وأما نقض بنية المخلوق ففي قوله تعالى عـن قـوم لوط: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ الذاريات: ٣٣، ولم يرد الطين في القرآن إلا في موضـع =

هذا المقام ذلك الاختلاف الوحيد في القرآن كله في ذكر الطين، فهو يوحي بأرضية هذا الصرح أرضية تأصلت فيه فجعلت من المحال عليه أن يبلغ السماء. فذكر فرعون للطين باعتباره وسيلة لبلوغ السماء هزيمة أخرى، بل انتصار آخر يحققه فرعون على نفسه، وأرضية الصرح تتقاطع مع عنصر آخر هو الوضوح، قال الزمخشري:

"الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر"[(1)].

يحاول فرعون أن يؤكد وضوح هذا البناء لكنه حين يذكر الطين يجعل من هذا الصرح عنصراً أرضياً، فلا يزيد بذلك على أن يؤكد وضوح استحالة بلوغه للسماء عن طريق تلك الأرضية الواضحة.

فماذا يفعل حين يبلغ أسباب السماوات، إنه يريد الاطلاع على الكبير -سبحانه وتعالى-، والاطلاع يختلف عن صريح النظر فحين أراد موسى – عليه السلام- رؤية الحق -سبحانه وتعالى- استعمل لفظ النظر: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٤٣).

ولكن فرعون يستعمل الإطلاع وليس النظر، ثم من أين يتم هذا الإطلاع؟ إنه يتم وفرعون لم يبلغ السماوات بل وقف عند أسبابهن، وقد

= خفض ليناسب دونية الأرض وسفولها، ولفتاً لنظر الإنسان حتى يعمل بها يخرجه من تلك الدونية، ولا يخفى أيضاً ما في هذا الخفض من تناسب مع تسمية العيش في الأرض ب"الحياة الدنيا".

(١) الكشاف: ٤/ ١٦٧.

أدرك فرعون علو إلهين فوقهن، وبهذا الإدراك يريد فرعون أن يجعل بينه وبين العزيز -سبحانه وتعالى- مسافة شديدة البعد، وهو يعلم أن السبب الذي يمنعه عن هذا الإطلاع وهو على الأرض لن يزول وهو يقف على أعتاب السماوات لذلك فالاطلاع هو الدلالة التي ناسبت نفسية فرعون فعبر بها عن صلته بإله موسى -سبحانه وتعالى-.

والآن نستطيع أن نصل إلى أن فرعون يتظاهر بقوة تنبئ دلالات اللغة عن خورها، فظاهر الأمر الذي "يروجه على أغمار قومه" أنه يتحدى الملك -سبحانه وتعالى-، بينما يشير عميق دلالات اللغة الحاكية وخافيات إشاراتها إلى أنه يضع العراقيل أمام نفسه، أو قل يعبر هو عبر تلك الإشارات عن العقبات التي تحول دون بلوغه لغرضه الذي أعلنه:

العقبة الأولى: طينية هذا الصرح الذي سيوصله إلى أسباب السماوات وهي طينية تجذب هذا الصرح إلى الأرض التي لم يتجاوزها علوُّ فرعون.

العقبة الثانية: أنه يرمي -كما أعلن بنفسه- ليس إلى بلوغ السماوات، بل إلى بلوغ أسباب السماوات أي: مؤدياتها وسبلها، وكم هو دقيق في هذا التحديد لأنه يدرك أنه لن يبلغ السماوات مهما فعل.

العقبة الثالثة: أنه يريد الاطلاع فقط إلى إله موسى -سبحانه وتعالى- ولا يطمع في لمس الذات العلية أو حتى في القرب من العظيم -سبحانه وتعالى-، دعك من مقارعته بأي شكل من أشكال الصراع المادي، فهو ينزه الله -سبحانه وتعالى- تنزيهاً يدل الظاهر اللغوي على ضده، وتأبي دقائق التعبير اللغوي إلا أن تخضع فرعون لربه وإن دل ظاهره على غير الخضوع.

إن السياق الذي ورد فيه ذكر ذلك الاستعلاء الكوني في سورتي القصص وغافر يدل على أن محاولة بناء الصرح قد تمت في قمة الصراع بين الحق والباطل مما يرجح أن فرعون قد فكر في بناء الصرح بعد اكتمال الآيات التسع وقبل الإغراق بفترة وجيزة، ومما يدل على ذلك قوله -تعالى- في سورة الأعراف عن إهلاك فرعون وقومه:

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٣٧).

وقد رأي بعض المفسرين أن صرح هامان داخل ضمن ما طاله التدمير الإلهي[١]. واستناداً إلى هذا الرأي نخرج بأن بناء الصرح كان في المرحلة الأخيرة التي أعقبها الإغراق مباشرة. فقد أسفرت مخاطبة موسى -عليه السلام- لفرعون عن انتصار مؤكد للحق فانتقل فرعون من المواجهة الجدالية إلى المواجهة المادية عبر السحر، فانتهت المواجهة الثانية بهزيمة أخرى لفرعون، فذهب في محاولة لإيهام شعبه بقدرته على مقارعة إله موسى -سبحانه وتعالى-.

موقع موسى -عليه السلام- من المواجهة:

الغريب أن التحول عن المواجهة الأرضية إلى المواجهة الكونية الموهمة والمتوهمة قابله عجز عن مواجهة موسى -عليه السلام-، ذلك النبي الذي حين كلمه الحق -سبحانه- بأمر الرسالة خاف من بطش فرعون، إنه بشر. .

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ٢/ ١٤٩، والتفسير الكبير للرازي ١٤/ ٣٤٩، ومدارك التنزيل للنسفي ١/ ٦٠٠ وروح المعاني للألوسي ٥/ ٣٩.

لكنه نبي. لقد عجز فرعون عن مواجهة ذلك النبي الذي شكل واجهة للرسالة التي زلزلت عرشه وأهانت تألهه وأذلت ترببه بالهزيمة تلو الهزيمة، عجز فرعون عن مواجهة ذلك النبي الإنسان فذهب يوهم شعبه أنه سينافس رب هذا النبي -سبحانه وتعالى-، والعجز عن مواجهة موسى- عليه السلام- تدل عليها عدة آيات في سورتي الأعراف وغافر، قال تعالى في سورة الأعراف بعد سرد أحداث يوم الزينة مباشرة:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٢٧).

يبدو أن ملأ فرعون قد أحسوا بخطورة الوضع فعمدوا إلى التعريض لفرعون بضرورة التصرف بحسم في أمر موسى، ويتجسد هذا التعريض في ذكرهم لقوم موسى الذين لا تجد لهم أي شكل من أشكال المناصرة له فقد تميز دورهم بالسلبية الشديدة وحين يذكرهم الملأ إنما يريدون موسى وحده دون هؤلاء القوم الضعاف. وهنا يفتضح أمر فرعون في خوفه من موسى - عليه السلام-، فهو يترك جانبه ليركز اهتمامه على جانب بني إسرائيل رغم علمه بأن الاستحياء والتقتيل لن يغيرا من الأمر شيئاً، فهما ديدن فرعون من قبل ميلاد موسى، بينما يشير استفهام الملأ إلى استنكارهم لتهاون فرعون في شأن موسى، فهذا الاستفهام يأتي "كالتوبيخ منهم لفرعون على ترك موسى ليفعل هذين الفعلين"[1].

(١) الطبري، جامع البيان: ١٠/ ٣٦٥.

ولنتأمل ما حكته سورة غافر عن هذا العجز:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة غافر:الآيات ٢٥،٢٧)

وذكر استحياء النساء وقتل الأبناء يدل على أن الأحداث التي حكتها سورة غافر جاءت بعد الأحداث التي حكتها سورة الأعراف، ويتأكد بذلك خوف فرعون، فالمخاطبون بقوله ﴿ ذَرُونِىٓ ﴾ هم نفس الملأ الذين عاتبوه فكيف يستقيم في الفهم منعهم إياه عن قتل موسى وهم يلومونه على التهاون معه. أما في حالة احتمال أن يكون ما حُكِيَ في سورة الأعراف من لومهم له جاء بعد أمره إياهم بأن يذروه فإن الأمر يبقى كما هو، ففي هذه الحالة يكون لومهم إياه مضمراً في صدورهم ليفصحوا عنه بعد أن أمرهم بأن يذروه يقتل موسى، وكأنهم يقولون له: لا نذرك تقتله فقط، بل نلومك على عدم قتله. لقد فضحه قومه، وفضحته فطنة النبوة حين يلتقط موسى – عليه السلام– طرف الخيط من فرعون الذي يقول: ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ فيقصر تلك الربوبية على موسى –عليه السلام– الذي يتحول ليخاطب مخاطبي فرعون أنفسهم ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ وكأنه يقول لهم إن معبودكم يخاف معبودي وأنا أعوذ به منه، وربي هو ربكم ورب فرعون، فيدلل بذلك على صدق رسالته، وعلى علو الحق –تبارك وتعالى– فوق

فرعون وملئه، وفوق التكبر الفرعوني الذي أذعن له الملأ.

ما كان فرعون ليخرق الحماية الإلهية التي وعد بها الحق -تبارك وتعالى- كليمه -عليه السلام-: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (سورة القصص: الآية ٣٥).

إنه غطاء الرسالة الذي حفظ وراءه الله النبيين فلن تجد في القرآن كله خرقاً لهذا الغطاء أو كشفاً لذلك الستر، وأقصى ما تجده بعض الأذى الذي طال موسى -عليه السلام- من لسان فرعون كقوله مخاطباً قومه:

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (سورة الزخرف: الآية٥٢).

وظل الأمر دُولة بين تحريض الملأ وخوف فرعون، وما مس موسى أذى من سلطان هذا ولا تحريض أولئك، وما ضره كيدهم وهو العائذ منهم بالله.

المبحث الثالث: سياق الاستدراج

والاستدراج مفهوم مستنبط من العلاقة بين "الخروج" و"الإخراج" باعتبارهما عنصرين متحكمين في مسار خواتيم الأحداث ما قبل الإغراق كما سيظهر لنا بُعَيد قليل.

وقد كانت بداية أمر الاستدراج بدعوتين دعا بهما موسى -عليه السلام- على فرعون وملئه وقومه، قال -تعالى- في سورة يونس:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة يونس: الآيتان ٨٨،٨٩).

فهذه الدعوة كانت على فرعون وملئه، لكن هناك دعوة أخرى على القوم:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة الدخان: الآيات ٢٢،٢٧).

فموسى -عليه السلام- يفرق في دعوتيه بين الملأ والقوم، وهذا يقتضي أن هناك فرقاً دلالياً بين اللفظين؛ فما المقصود بالملأ؟ قال ابن منظور: "الملأ الرؤساء سموا بذلك لأنهم ملاءٌ بما يحتاج إليه والملأ مهموز مقصور: الجماعة، وقيل: أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدَّموهم الذين

يرجِع إلى قولهم"[١].

فهؤلاء الملأ هم حاشية فرعون الذين شهدوا أولى مخاطبات موسى –عليه السلام– لفرعون حين كانوا حضوراً في مجلسه، وهم الذين قاموا بتحريض فرعون على موسى، وهم الذين هموا بقتله قبل الرسالة:﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ (سورة القصص:الآية ٢٠). وقد لعب هؤلاء الملأ دوراً كبيراً في صراع فرعون مع موسى –عليه السلام– لذلك خصهم بهذه الدعوة. إنهم مواطنو الدرجة الأولى في النظام الطبقي الفرعوني، ولكنهم جزء من الشعب، أي من القوم:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٠٩).

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٢٧).

وهؤلاء الملأ هو أغنياء الدولة المصرية وأصحاب رأس المال فيها، لذلك يذكر موسى –عليه السلام– زينتهم وأموالهم، أما القوم فهم عامة المصريين، وهم مواطنو الدرجة الثانية، بينما بنو إسرائيل هم المستعبدون المستضعفون غير المتمتعين بأي شيء من حقوق المواطنة، وهذا هو سلم الشيع الفرعونية:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً

(١) لسان العرب: مادة (ملأ) .

مِّنْهُمْ ﴾ (سورة القصص: الآية ٤).

فالملأ هم قمة تلك الشيع، يليهم القوم، ثم الطائفة المستضعفة من قوم موسى، وحين وعد فرعون السحرة بأن يكونوا من المقربين إنما وعدهم بأن ينتقلوا من طبقة القوم إلى طبقة الملأ.

وبذلك فالقوم خارج دعوة موسى –عليه السلام– المذكورة في سورة يونس، ولكن موسى –عليه السلام– قد بعث إليهم بدلالة قوله –تعالى–: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ (سورة الدخان: الآية ١٧).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ١٠).

وقد كذب هؤلاء القوم رسولهم الذي تحولت رسالته إلى مرحلة الاستيئاس، قال –تعالى– في سورة يوسف: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة يوسف ١١٠).

وهذه الدعوة وإجابتها لم تكونا سوى تطبيق للقانون الإلهي الصادر في حق المجرمين، فهو يذكر قوم فرعون بصفة الإجرام، قال القرطبي:

"يقال فلان جريمة أهله أي كاسبهم، فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي"[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ١٧٦.

فهـذه الـدعوة تتطـابق مـع سـنة الإهـلاك، أولاً ثـم تـدفع عـن القـوم إمكانية براءة ساحتهم من كسب المعاصي ثانياً، وذلك عبر دلالة الإجرام.

الاستفزاز والاستخفاف:

لم يكن موسى وحده من دخل مرحلة الاستيئاس بل كان فرعون معه، ولذلك نجد النهج الفرعوني الذي قضى باستبقاء بني إسرائيل في مصر قد تحول إلى إخراجهم منها إخراجاً مذلاً يدل عليه قوله -تعالى-:

﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ (سورة الإسراء: الآية ١٠٣).

أي أراد أن يخرجهم من أرض مصر[١]. إلا أن تلك الإرادة قد تحولت من بني إسرائيل إلى قومه:

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (سورة الزخرف: الأية ٥٤).

والاستخفاف والاستفزاز قريبا الدلالة، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية:

"فاستخف قومه: فاستفزهم، وحقيقته حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم، وكذلك استفز من قولهم للخفيف فز"[٢].

وهذا التقارب الدلالي جاء ليعبر عن انعكاس الفعل حيث أراد فرعون أن يكون بنو إسرائيل هم الطرف الذي ستنفذ فيه إرادة ذلك الفعل،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٣٣٨.

(٢) الكشاف: ٤/ ٢٥٩.

وأراد الله -تعالى- أن يكون تنفيذه في قومه، والفعل هو هو، أما المغايرة في اللفظ الدال على الفعل فقد جاءت بسبب الفرق المنطقي بين تعامله مع قومه عبر الاستخفاف الذي ليس فيه شيء من السلبية الدالة على العنف، على عكس استفزازه لبني إسرائيل الذي يوحى بنوع من العنف، فالاستفزاز يعني الإزعاج الذي هو "نقيض الإقرار، تقول أزعجته من بلاده فشخص" (١).

وهؤلاء المستخفون هم المدنيون من المصريين حيث لم يكتف فرعون بالعسكريين فذهب يزيد جيشه بعناصر مدنية، وهو يظن أنه يقوى هذا الجيش، بينما الواقع يقول إنها إجابة الله -تعالى- لدعوة موسى -عليه السلام-، وإنها سنة الله الماضية في المرسلين وفي المرسل إليهم، فمحاولة فرعون لاستفزاز بني إسرائيل كانت آخر أسباب إهلاكه: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾

ولكن كيف السبيل إلى الغرق وهم في ديارهم وجناتهم وعيونهم؟ كان لابد من إخراجهم:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (سورة الشعراء: الآيات: ٥٣،٥٧).

هكذا يخرجون بتنفيذ فرعون للإرادة الإلهية، وهذا في ما يخص

(١) لسان العرب: مادة (زعج).

معسكر فرعون وجنده من الملأ والقوم، أما معسكر بني إسرائيل فقد كان الخروج فيه بوحي إلهي:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٥٢).

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٧٧).

لقد طمَّع فرعون قومه في قرب المأخذ وسهولة المنال، فخرجوا ظانين أن بني إسرائيل شرذمة يسهل أخذها، وتعمل فيها آلة التقتيل، ثم تغسل الأيدي من دمائها فتعود الحياة إلى رغد العيش في جناتهم وعيونهم.

إذن فهو تحريك للطرفين: فقد أوحى الحق -سبحانه- لنبيه بالسرى، وهذا تحريك عبر الوحي الإلهي، لكنه لا يعاكس إرادة المتحرك، أما في الطرف الآخر فهو إخراج وليس خروجاً، ليس لأنه يعاكس إرادة المتحرك، ولكن لأنه يخضع للاستدراج الإلهي للمتحركين ولمن توهم أنه يحركهم ويستخفهم. فالاستدراج هو المحرك الحقيقي لمعسكر فرعون، والوحي الإلهي هو محرك معسكر بني إسرائيل، وليس لفرعون إرادة على أي من المعسكرين، فقد اتجهت إرادته الفعلية إلى الاستفزاز فحولها الاستدراج إلى الاستخفاف الذي يجسد إرادة الإغراق، وهذا التحويل يتجلى في أن فرعون هو الذي نادي في قومه بالخروج:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (سورة الشعراء: الآيات ٥٣،٥٨).

وهذا ليس أمراً مباشراً بالخروج، بل هو أمر يحتوى في داخله على إقناع بسهولة الأمر، وهذا يدل على أن فرعون كان بحاجة إلى هؤلاء المدنين أو هكذا زينت له الأمر إرادة الإخراج، فوصف بني إسرائيل بأنهم شرذمة قليلة قال الطبري:

"وشرذمة كل شيء بقيته القليلة"[1].

وكأنه يذكرهم باستعباده واستعبادهم لبني إسرائيل، فهؤلاء الخارجون هم أنفسهم من قتل قومُ فرعون أبناءهم واستحيوا نساءهم، فهم ليسو سوى بقية لأولئك المستعبدين، أي: أن تلك الشرذمة هي آخر من بقي من الفئة المستهدفة بالتصفية العرقية، ويجب على قوم فرعون أن يواصلوا مشروع الإبادة الذي قارب على الانتهاء. وقد خرج القوم بالفعل وراء بني إسرائيل:

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ (سورة الشعراء: الآيتان ٦١،٦٢).

لم ينظر بنو إسرائيل إلا إلى الجانب المادي المحسوس، بينما موسى على يقين من نصر الله الذي وعده بهلاك فرعون وملئه ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ وقد بدأ مسار تلك الإجابة بالوحي بالخروج والسرى ليلاً، مما جعله على يقين بأن هذا المسار ماضٍ بفرعون حتى هلاكه.

---

(١) جامع البيان: ١٧/ ٥٧٢

الدرك والإدراك:

لقد ورد ذكر مادة **"درك"** في هذا الجزء من القصة ثلاث مرات:

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٦١).

﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٧٧).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ (سورة يونس: الآية ٩٠).

وإذا وقفنا عند آية سورة طه وجدنا أنها هكذا في القراءات السبع وأن تصريفها ثلاثي باتفاق القراء، قال ابن مجاهد:

"ولم يختلفوا في فتح الراء من "دركاً""[١].

هكذا اتفقوا في قراءتها على تحريك الراء، فلماذا وردت (درَكاً) وليس إدراكاً على مصدر (أدرك)؟ السبب أن (دركاً) أقل حروفاً من (إدراكاً) وحين يقل عدد حروف الكلمة تقل عظمة مدلولها إذا قورنت بكلمة لها نفس المدلول ولكن حروفها أكثر، فالآية تنهى موسى -عليه السلام- عن الخوف من (الدرك) تحقيراً لشأن إمكانية إدراك فرعون له، وزيادة في تأكيد النهي عن الخوف، ولو قيل (إدراكاً) لزادت حروف الكلمة، ولعظمت دلالة الخوف المنهي عنه. أما في آيتي سورة يونس وسورة الشعراء فإننا نجد

(١) السبعة في القراءات، ص٤٢١.

تقارباً في الكلمتين:

مدركون – أدركه

فقد استيأس أصحاب موسى حتى استعملوا صيغة "اسم المفعول" في الإشارة إلى إدراك فرعون لهم، واسم المفعول يحمل الإيحاء بسلبية العاجز عن المواجهة، وهنا يحضرنا النهي الإلهي عن الإدراك المصغر الدلالة، وبنو إسرائيل يخرقون هذا النهي رغم ما فيه من شحنة التأكيد. وتأتي آية سورة يونس لتكذب ظنونهم فليس المطارد الذي ظنوا أنه قد طالهم من سيدركهم، بل هو الذي سيدرك:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ ﴾

ولم يأت التعبير عن اقتراب حدوث الغرق بصيغة أخرى، بل بصيغة الإدراك، وهي نفس الصيغة التي استعملها بنو إسرائيل، أما آية سورة طه فهي الصلة بين الإدراكين:

﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾

ومعناها عندي: لا تخاف دركاً من عدوك لك ولقومك، ولا تخشى من عدم إدراك أمرنا إياه. لذلك جاء النهي عن سلبية الإحساس في صورتين، فهما في الحقيقة نهيان عن الخوف من إدراك عدوه إياه، ثم عن الخشية من عدم إدراك أمر الله لعدوه الذي يطارده.

ويلفت الأنظار أمر آخر: ذلك أن الله -تعالى- يخاطب موسى -عليه السلام- في شأن الخروج من مصر وحياً:

﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي ﴾ (سورة طه: الآية ٧٧).

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٥٢).

والوحي من علامات النبوة، مما يعني أن هذا الخروج كان بتدبير إلهي وبتخطيط نبوي، وقد وصف -سبحانه- بني إسرائيل في الآيتين بأنهم عباده، مما يعني أنهم يتمتعون في ذلك الخروج بالحماية الإلهية، أما حين يحكي لنا المولى -عز وجل- ما قاله بنو إسرائيل حين تراءى الجمعان لا يسميهم عباده بل يسميهم (أصحاب موسى):

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾

والمصاحبة هي طول الاجتماع[1]، فقد طال اجتماعهم بموسى -عليه السلام-، ومروا معه بتلك التجارب السابقة ونصرة الله لنبيه يوم الزينة والآيات التسع، فكيف يخافون رغم تلك الصحبة. لقد ذكَرَتهم هذه الآية بصفة الصحبة تأكيداً لخفة عقولهم. ولكن انظر إلى الفرق بينهم وبين أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا** ﴾ (سورة الأحزاب: الآية ٢٢).

وانظر إلى موقف سعد بن معاذ يوم بدر حين قال للرسول -صلى الله عليه وسلم-:

"إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد"[2].

---

(١) انظر: مفردات الراغب: مادة (صحب).

(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك: ٢/ ٤٣٥. والعجيب أن هذا البحر الذي يتحدث سعد بن معاذ رضي الله عنه عن خوضه هو نفس البحر الذي خافه بنو إسرائيل وهو بحر =

أما الموقف الأكثر عملية والأكثر تعارضاً مع موقف بني إسرائيل فهو اقتحام العلاء ابن الحضرمي -رضي الله عنه- مياه الخليج بجيشه في حروب الردة[1].

وهذا هو جوهر الفرق بين أصحاب موسى وأصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم -رضي الله عنهم أجمعين-، وإنما قادنا للحديث عنه مفهوم الصحبة.

اليم: بداية الاستدراج:

من العجائب الدلالية أن (اليم) لم يذكر في القرآن كله إلا في قصة موسى فقط. والترتيب الذي تقتضيه الأحداث لذكر اليم كما يلي:

ثلاث مرات في قصة الميلاد: منها مرتان في سورة طه:

﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾ (سورة طه: الآية ٣٩).

ومرة في سورة القصص:

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ (سورة القصص: الآية ٧).

وأربع مرات في أحداث الغرق: مرة في سورة الأعراف:

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٣٦).

= القلزم.

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك: ٣/ ٣١١.

ومرة في سورة طه:

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (سورة طه: الآية ٧٨).

ومرة في سورة القصص:

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (سورة القصص: الآية ٤٠)

والمرة الأخيرة في سورة الذاريات:

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾. (سورة الذاريات: الآية ٤٠)

أما الذكر الأخير للكلمة فقد جاء في قصة السامري:

﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (سورة طه: الآية ٩٧).

ويصب ذكر اليم في قصة السامري في سياق العبرة، ذلك أن فرعون قد تأله فكان مصيره الغرق في اليم، ثم ادعى السامري الذي شهد مع بني إسرائيل غرق فرعون أن العجل إله من دون الله فكان مصير العجل هو نفس مصير فرعون. فكأن ذكر اليم خاص بفرعون بشكل مباشر أو غير مباشر. أما ارتباط موسى -عليه السلام- باليم ففي ميلاده فقط وفي ما عدا ذلك فقد ورد باسم (البحر) في قصة موسى مع بني إسرائيل وحتى في قصته مع فرعون إذا غاب فرعون. والنتيجة أن اليم لم يرد ذكره إلا في ميلاد موسى وفي غرق آل فرعون وبعد ذلك في نسف عجل بني إسرائيل.

ويلحظ ههنا أن جميع الآيات التي يذكر فيها اليم في معرض حكاية أحداث الإغراق لم تذكر أن الغريق فرعون وحده، بل تصف جميعها غرقاً جماعياً، فليس هناك آية تصف غرق فرعون وحده سوى آية الإدراك السالف ذكرها.

وفي مقابل هذا الغرق الجماعي ذكر لنجاة فردية للرضيع الذي حفظه اليم، والرابط بين هذه النجاة وذلك الغرق قوله -تعالى-:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾. (سورة القصص: الآيتان ٨،٧)

إن هذا الالتقاط هو بداية الاستدراج، واليم هو النقطة التي مثلت بداية الحلقة ثم عادت لتمثل آخرها مع إحكام تلك الحلقة حول هؤلاء الملتقِطين: لقد التقطتم هذا الرضيع من اليم وسوف يتسبب هو نفسه في غرقكم في اليم.

وقد ورد إخراجهم إياه من اليم في سورة طه بصيغة الأخذ:

﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ (سورة طه: الآية ٣٩).

وبالأخذ نفسه يتم التعبير عن إرادة الإغراق:

﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (سورة القصص: الآية ٤٠).

﴿ فَأَخَذْنَهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (سورة الذاريات: الآية ٤٠).

لقد أخذوا موسى -عليه السلام- من اليم إلى اليابسة، وأحسنوا إليه وبحثوا له عن المرضعة، ثم أخذهم الله -تعالى- من اليابسة فنبذهم في اليم، والتعبير عن أخذهم من اليابسة إلى اليم بالنبذ ذهب الطاهر بن عاشور إلى أنها استعارة، فقال:

"قوله فنبذناهم في اليم يتضمن استعارة مكنية: شُبِّه هو وجنوده بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر"[١].

أما موسى فقد أُخذ من اليم إلى اليابسة، وأما هم فقد أُخذوا من اليابسة إلى اليم، مع اختلاف في الصورتين، فصورة التقاطه من اليم تشعرك بالهدوء والأمان، وصورة أخذهم من اليابسة إلى البحر تشعرك بالحركية والصخب لأنها تحتوى على عنصر يغيب عن تحول الرضيع من اليم إلى اليابسة وهو عنصر النبذ، قال الراغب:

"النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به، ولذلك يقال نبذته نبذ النعل الخَلِق"[٢].

هكذا يأخذون الرضيع فيحسنون إليه وهو عدوهم، ويحولون بينه وبين أسباب الهلاك، وهكذا تقضي فيهم إرادة العظيم بالطرح في اليم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٢٥، وانظر: أيضاً الكشاف ٣/ ٤١٥، والتفسير الكبير ٢٤/ ٦٠١.

(٢) المفردات مادة (نبذ).

ليهلكوا أذلاء محتقرين.

إن (اليم) لفظ يحمل مدلولاً يخرج عن سيطرة الإنسان، ويدخل تحت مفهوم الجند المسخرين الذين لا سلطان عليهم إلا الله -تعالى-، وهذا ما تدل عليه أحداث الميلاد، وتدل عليه أيضاً تفاصيل الإغراق كما سيأتي بُعيد قليل.

اليبس والطود العظيم:

هناك تعارض بين خوف بني إسرائيل من الإدراك وطمأنينة موسى -عليه السلام- بمعية الله -تعالى-:

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ (سورة الشعراء: الآيتان ٦٢،٦٣).

وهنا نستحضر دلالة اليم في صلتها بدلالة البحر، فهو الآن بحر، ولا يتحول إلى صفة اليم إلا بعد أن يدخله فرعون وجنوده. وقد نفذ موسى -عليه السلام- الأمر الإلهي، فانفتحت الطرق في البحر ليسير فيها بنو إسرائيل.

﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٥٠).

قال الطبري: "ففرق البحر اثني عشر طريقاً فسلك كل سبط منهم طريقاً منها"[١].

(١) جامع البيان: ١/ ٦٥٤.

أما (الفرق) فهو الفصل ومنه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل[١]. فقد انفصل البحر في اثني عشر موضعاً وتحول ليصبح في كل موضع من مواضع الانفصال ﴿ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، قال الراغب:

"الطود هو الجبل العظيم، ووصفه بالعظم لكونه فيما بين الأطواد عظيماً، لا لكونه عظيماً فيما بين سائر الجبال"[٢].

ويدل كثير من أقوال المفسرين على أن المشبه بالطود العظيم هو الماء في هيئة ارتفاعه[٣].

ولكن ما هو وجه الشبه بين الماء المرتفع نحو السماء وبين الطود العظيم، قال البقاعي:

"كالطود، أي: كالجبل في إشرافه وطوله وصلابته بعدم السيلان، العظيم: المتطاول في السماء الثابت لا يتزلزل لأن الماء كان منبسطاً في أرض البحر فلما انفرق وانكشفت فيه الطرق انضم بعضه إلى بعض، فاستطال وارتفع في السماء"[٤].

وفضلاً عن ذلك فلا أثر للماء على قاع البحر الذي تحول إلى طريق للمسير:

﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ (سورة طه: الآية ٧٧).

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٧٨.

(٢) المفردات: مادة (طود).

(٣) انظر: فتح القدير ٤/ ١١٩.

(٤) نظم الدرر ١٤/ ٤٤.

لقد فرق الله -سبحانه وتعالى- البحر فارتفع ماؤه تاركاً أرضاً يابسة، ويجيء تشبيه هذا الماء المرتفع بالجبل ليوحي هذا التشبيه بدلالتين هما الارتفاع والثبات، وجاء التعبير عنهما مكثفاً فالمشبه به ليس هو الجبل العظيم، بل هو الطود العظيم، والطود هو الجبل العظيم، فدلالة العظمة في حجم هذا الجبل دلالة مضاعفة، إذ تشير إلى شيء هو أصلاً عظيم ثم وصف في عظمته هذه بالعظمة، فما السر في هذا التكثيف؟ إنها الإشارة إلى سكون الماء، وذلك لغرابة تلك الهيئة، فالماء بطبيعته يسيل على الأرض، ولكنه يكتسب بقدرة الله -تعالى- صفة الجبل في سكونه، ولتأكيد هذا السكون بصورة مضاعفة جاء ذكر الطود العظيم، فعظمة هذا الجبل مضاعفة فكذلك صفة سكونه مضاعفة.

ويقوم ههنا شكلان من التعارض مع قوانين الطبيعة: الشكل الأول هو اليبس في قاع البحر، والشكل الثاني هو سكون ماء البحر المتحول من الوضع الأفقي إلى الوضع الرأسي. وهذان الشكلان معاً يكونان صورة مناقضة تماماً لصورة البحر، إنها صورة الوادي بين جبلين. وهذه أعلى درجات السكون المادي في القرآن، وهي تتناسب مع نفسية تلك الأمة التي لا تعترف إلا بالمشاهد ولا تؤمن إلا بالمحسوس من الأشياء، لذلك كان تأمينهم في شكل مادي.

إن هذا السكون المادي للبحر المتحول إلى ما يشبه الوادي لم يكن موجها فقط إلى أبصار بني إسرائيل، بل كان وراءه جانب آخر يصب في استدراج فرعون، فكأنه طابع مادي لمسار الأحداث جعله ربُّ تلك

الأحداث موافقاً لبني إسرائيل من جهة، وموافقاً للإرادة التي قضت بهلاك فرعون من جهة أخرى.

المعسكر الفرعوني:

لقد كانت صورة السكون الطودي عاملاً مغرياً لفرعون باقتحام البحر، فدرجة ذلك السكون كانت موحية بأنه لن يتغير، وأن البحر قد تجمد على حالة الارتفاع، أما الحقيقة فتشير إلى أنه خطوة أخرى في مسار الاستدراج الذي يبدأ بالإخراج ثم ينتقل إلى عنصر آخر وهو الإزلاف الذي يعني التقريب كما يعني الجمع[1]:

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴾ (سورة طه: الآية ٦٤)

فالحق -تبارك وتعالى- هو الذي قرب فرعون وجنوده من البحر، وقد شكل سكون الطود عاملاً مهماً في ذلك التقريب الذي يوحي بأن المسافة بين فرعون وبني إسرائيل كانت قريبة جداً، وهذا القرب أشعر المعسكر الفرعوني بقرب المأخذ وبأن بني إسرائل في متناولهم. وهناك دليل آخر على هذا الاقتراب في قوله -تعالى-:

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٥٠)

إن درجة الاقتراب قد مكنت بني إسرائيل من مشاهدة منظر الغرق، وظاهر الآية يدل على قرب شديد، فالنظر المقصود هنا هو الذي تكون معه

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٠٧.

الصورة المنظور إليها شديدة الوضوح. وحين رأى موسى -عليه السلام- هذا الاقتراب همَّ بضرب البحر بعصاه، فرفع الحقُّ يد كليمه آمراً إياه بأن يترك البحر رهواً لينزل الحقُّ -سبحانه وتعالى- أمره بقدر إلهي:

(﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ (سورة الدخان الآية ٢٤)

والرهو: هو الساكن، وقيل هو الفجوة الواسعة [1]، والمعنيان كلاهما يشيران إلى السكون، أما الأول فيدل عليه دلالة مباشرة، وأما الثاني فيدل على السكون بشكل غير مباشر، ذلك أن الفجوة لم تكن إلا بعد سكون الماء، فالدلالة الأولى وضعية، والثانية لا تمر إلا عبر دلالة عقلية.

إن المطاردة التي تصفها اللغة الحاكية تصب في ثنائية "الحركة والسكون"، فالإخراج تحريك والإزلاف أيضاً تحريك، وتحويل البحر إلى هيئة الطود العظيم تسكين، فالعنصر البشري يتحرك والطبيعة تَسكُن.

الآن يعود البحر يماً، وموسى -عليه السلام- يتعامل مع البحر، أما اليم فهو الذي تعامل مع موسى الرضيع، وهو الذي سيتعامل الآن مع فرعون، فما تراه يصنع مع فرعون وجنوده؟ إن الجواب عن هذا السؤال يقتضي الوقوف عند آخر ما بلغه البحر قبل أن يتحول إلى اليم، إنها حالة السكون الطودي، فما ظنك بجبل من الماء يهوي على رؤوس قوم؟ :

(﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (سورة طه: الآية ٧٨)

ويرى الزمخشري أن قوله -تعالى- ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ من باب

(١) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٧٦.

الاختصار[١]، فهو إيماء عبر اللغة يذكرك بالطود العظيم حتى تربط بين الجبل الذي ارتفع الى السماء وبين مقدار ما غشي القوم من ماء اليم، وهذا من باب الربط بين أحداث القصة رغم أنها تتوزع على عدة سور. لقد انهار الطود المائي على رأس فرعون وعلى رؤوس جنده. وهاتان الحالتان المتعارضتان من النجاة والغرق عبارة عن حدث لم يتكرر في التاريخ البشري، فلم يشهد ذلك التاريخ مشياً لإنسان في قاع بحر يابس، كما لم يشهد غرقاً لإنسان بعد أن بلغ قاع البحر.

(١) الكشاف: ٣/ ٧٨.

الفصل الثاني : فرعون الغائب

وتحته مبحثان:

المبحث الأول : سياق العبرة التاريخية .

المبحث الثاني : سياق التشابه السلوكي

المبحث الأول: سياق العبرة التاريخية

انتهت أحداث سياق الاستدراج بقمة ذلك الاستدراج وهو الأخذ المتجسد في الغرق فما إن يبلغ فرعون مرحلة الغرق حتى يتم نقله الى سياق العبرة التاريخية:

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (سورة يونس: الآيات ٩٠، ٩٢)

فالغرق هو ختام مرحلة الاستدراج، وتحوُّل فرعون إلى آية هو بداية العبرة التاريخية، وقوله -تعالى- ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ إشارة إلى يوم غرقه، وخطاب فرعون بهذه العبارة يعني أن الحق -تبارك وتعالى- قد قضى بآيوية فرعون قبل غرقه حتى خوطب بها، وقد قضت إرادة العزيز -سبحانه وتعالى- بأن يؤمن فرعون، لكنه إيمان الإذلال وليس إيمان الهداية والاهتداء، فما حقيقة تلك الآية؟ وما هي صلتها بسياق العبرة التاريخية؟ .

فرعون: الآية الخالدة:

لقد انقسمت رسالة موسى -عليه السلام- إلى فترتين: الفترة الأولى هي التي قضاها موسى في دعوة فرعون وقومه وانتهت بغرقهم. والفترة الثانية هي التي قضاها موسى مع قومه، وكان له -عليه السلام- في كل من الفترتين معجزات مؤيدة لرسالته.

أما معجزات الفترة الأولى فهي الآيات التسع التي ورد ذكرها في موضعين من القرآن الكريم، قال -تعالى- في سورة الإسراء:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (سورة الإسراء: الآية ١٠١)

وقال -تعالى- في سورة النمل:

(﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة النمل: الآية١٢)

إذن فالآيات التسع كانت خاصة بفرعون وقومه، ولما أبى فرعون طاعة رب تلك الآيات جعل منه آية عاشرة. من أجل ذلك أمر الله -تعالى- نبيه موسى -عليه السلام- بترك البحر رهواً، ففرعون هو الآية العاشرة بعد الآيات التسع، وهو قضاء إلهي أبعد عنه الحق -تبارك وتعالى- يد نبيه وكليمه ليكون مصدر ذلك القضاء هو ربه الذي أراده إرادة مباشرة خالصة من التدخلات البشرية. وهذا شأن كل آيات الله -تعالى-، فما من آية إلا وهي إلهية المأتى وهي قاعدة ما كانت الآية العاشرة لتشذ عنها.

لقد تباينت آراء المفسرين في المراد بقوله -تعالى- ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ فمنهم من قال: إن المراد به بنو إسرائيل لأنهم شكوا في غرق فرعون، ومنهم من قال إن المراد به كل من جاء بعد فرعون من الناس. [١]

والرأي الثاني يستبطن في داخله الرأي الأول، فإذا كان فرعون آية لكل من

(١) وقد أورد الطبري الرأيين كليهما، انظر: جامع البيان: ١٢/ ٢٧٩.

جاء بعده فإن تلك الآية تدخل تحت مفهوم العبرة بمجرد وقوعها، وبنو إسرائيل معنيون بهذه الآية بهذا الاعتبار، إضافة إلى أنهم الأمة الوحيدة التي تدخل تحت استهداف العبرة وشاهدت هذه العبرة بأعين أفرادها لحظة وقوعها.

أما أهل هذا الزمان فلديهم فرصة مشاهدة الآية الفرعونية بصورة أخرى وفقاً للرأي القائل إن رمسيس الثاني، الذي تعرض مومياؤه في متحف القاهرة، هو فرعون موسى. وحول هذا الرأي كثير من الجدال إلا أن القائلين به يستدلون بعدة أدلة منها أن مومياء رمسيس الثاني قد عثر عليها في "خبيئة الدير البحري" واستخرجت منه سنة ١٨٨١، وحين تم فك اللفافات عنها ارتفعت اليد اليسرى للمومياء، وقد كانت موضوعة على اليد اليمنى على عكس عادة الفراعنة حيث توضع اليد اليمنى فوق اليسرى عند التحنيط، ويرى الدكتور رشدي البدراوي أن يد رمسيس الثاني قد تصلبت على وضع الارتفاع قبل تحنيط الجثة مما يعني أنه كان يحاول دفع شئ به، وقد كان ذلك الشئ هو الموج الذي غشيه عند غرقه(١).

لقد بعث الله -تعالى- موسى -عليه السلام- في تسع آيات ليصبح عددها عشراً بعد إضافة فرعون، وبالضرورة فإن الآية العاشرة لم يبعث بها موسى -عليه السلام- إلى فرعون، وإنما أرادها -تعالى- آية خالدة، فلم يبق من الآيات التسع شئ، ولكن آيوية فرعون باقية إلى يومنا هذا في شكلها المادي المحسوس على قول من قال إن رمسيس الثاني هو فرعون موسى، وعلى غير

(١) رشدي البدراوي، قصص الأنبياء والتاريخ: ٤/ ٩٥٨ وما بعدها.

هذا القول فهي باقية على شكلها المعقول الذي تدل عليه اللغة الحاكية وحدها دلالة روحانية غيبية محضة:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾

حيث كانت الدلالة على المستهدفين بتلك الآية المعنيين بأمرها عن طريق الاسم الموصول"من"، و"من" هذه من أعمق الأدوات دلالة في اتساع نطاق ما تشير إليه من المسميات، قال عنها الزمخشري:

"وهي تختص بأولي العلم، وتوقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث" [١].

وهل من عاقل يخرج من هذا السقف، إنها تختص بالمفرد، والمثنى، والجمع، وبالذكر، والأنثى، مما يؤذن بأن فرعون آية للبشرية أفراداً وجماعات منذ لحظة غرقه حتى قيام الساعة، فاللعين الغريق آية لكل فرد من جهة تكبر صاحب السلطان إذا كان المعني بالآية ذا سلطان، فإن لم يكن فالغريق آية له في ما يخص العلو على الله حيث عوقب بالأخذ. وهو كذلك آية للتجمعات البشرية المتغولة على حقوق جماعات أخرى في شكل تصفية عرقية أو تفرقة عنصرية. وصلة فرعون بهذا السلوك الجماعي هي صلة القائد المحرض، وسيأتي تفصيل هذا الجانب في قادم التفاصيل بحول الله.

وتبقى الإشارة إلى جانب شديد الأهمية ذلك أن تلك الآية كانت لموسى -عليه السلام-، ولكن ورودها في القرآن هو الذي ضمن لها الخلود، فلولا ورودها في الكتاب الخاتم المهيمن لما خلدت حتى لو وردت

---

(١) المفصل في علم العربية،ص١٤٦.

في الكتب السماوية السابقة المنسوخة بالقرآن.

ثم أرسل الله الرسل من بعد موسى -عليه السلام- إلى أن بعث خاتمهم وسيد ولد آدم -صلى الله عليه وسلم- فكان لا بد للآية الفرعونية من دور في الوعيد القرآني الرباني لمن كذب بالمبعوث الخاتم -صلى الله علية وسلم-:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة المزمل: الآيتان ١٥،١٦)

وقد تباينت آراء المفسرين في حقيقة المخاطبين بهذه الآية، فقال شيخهم الطبري:

"إنا أرسلنا إليكم أيها الناس رسولا شاهداً عليكم"(١)

ويرى ابن عطية أن الآية تحتوي على خطاب للعالم مع وضع قريش في واجهة ذلك الخطاب(٢)

هذا فيما عدا من قال من المفسرين إن الخطاب لأهل مكة خاصة، ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد بعث إلى الثقلين في سقف زماني يمتد إلى قيام الساعة سلمنا حينها بتعميم الخطاب على جميع المبعوث إليهم فتكون الآية العاشرة قد امتدت لتشمل الإنس والجن مع الوقوف بشكل خاص عند كفار قريش، فهم أول المكذبين بالرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- وعبر أبواب فرعون المفتوحة على

---

(١) جامع البيان: ٢٣/ ٣٨٦.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٨٩.

نطاق العبرة التاريخية يدخل قومه ليصبحوا معه في نطاق تلك العبرة، وذلك بسبب خفتهم حين أمرهم فاستجابوا لأمره:

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (سورة الزخرف: الآيتان ٥٤،٥٥)

ويعرج بنا هذا الازدواج بين فردية العبرة وجماعيتها إلى ذكر "آل فرعون"، فهو ذكر يدعم تحول فرعون من العبرة للأفراد إلى العبرة للأمم. فقد ورد ذكر "آل فرعون" في القرآن ثلاث عشرة مرة يحتل سياق العبرة التاريخية جزءاً غير يسير منها، وذلك بشكل مباشر يتمثل في قوله -تعالى-:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

فقد تكررت هذه العبارة ثلاث مرات: إحداها في سورة آل عمران:

(﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة آل عمران: الآيتان ١٠،١١)

قال الطبري: "كسنة آل فرعون وعادتهم والذين من قبلهم من الأمم الذين كذبوا بآياتنا فأخذناهم بذنوبهم فأهلكناهم. . . كالذين عوجلوا بالعقوبة على تكذيبهم ربهم من قبل آل فرعون من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم"[١]

والموضعان الآخران في سورة الأنفال:

---

(١) جامع البيان: ٥/ ٢٣٤.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة الأنفال: الآيات ٥٠،٥٢)

ففي هذه الآيات ثلاث من الطوائف الضالة:

الذين كفروا: وهم كفار العهد النبوي وكفار كل زمان تلاهم حتى تقوم الساعة، ولذلك كان التعبير عن كفرهم بالفعل، والأفعال تدل على الحركية وتلغي الثبات والجمود، فالكفر سمة بشرية ليس لها مكان وليس لها زمان.

آل فرعون: وهم القبط الذين عصوا نبيهم موسى –عليه السلام– فأخذوا بعذاب الاستئصال.

الذين من قبلهم: واستناداً إلى تفسير الطبري لهذه العبارة فهي تدل على تجمعات الضلال البشري ما قبل آل فرعون.

والترتيب الزماني لتلك الطوائف يدل على توسط "آل فرعون" للضلال البشري، وكأنهم بؤرة هذا الضلال ومركز دائرته، فهذا الضلال هو دأب الإنسانية المبتعدة عن الحق، وعبارة ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ تشتمل على المشبه به فقط، وهو دأب آل فرعون، فما هو المشبه؟.

قال الزمخشري: "والكاف مرفوع المحل تقديره: دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم"[1]

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٤٠.

وبذلك نتعرف على الأركان الثلاثة للتشبيه. ولكن ماذا عن عاقبة ذلك الشبه؟ ههنا تكمن العبرة التاريخية، فما أصاب كل الأمم المأخوذة بعذاب الاستئصال ما زال سنة إلهية كما كان الضلال سنة بشرية.

ولكن الأمر لا يقوم على ساق واحدة، فلفظ الآل في القرآن وصفت به طوائف بشرية أخرى كما وصف به القبط، وتلك الطوائف هي كما يلي: "آل إبراهيم، آل لوط، آل يعقوب، آل موسى، آل هارون، آل داود، آل عمران".

فهي إذن سبع طوائف، والرقم سبعة يوافق عدد أبواب جهنم:

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة الحجر: الآيتان،٤٣،٤٤)

فكأن القبط قد قاموا يدعون إلى هذه الأبواب السبعة، فقيض الله لكل باب من تلك الأبواب طائفة من تلك الطوائف المهتدية لتصد عن سبيل جهنم، فتقوم تلك الطوائف بالدور المضاد للدور الفرعوني من الناحية التاريخية لمفهومي الاقتداء والعبرة، فآل فرعون عبرة لمن تفكر في مآلهم، ودعاة إلى النار لمن أراد الاقتداء بهم.

ولكن "آل فرعون" لا يقومون مثالاً أوحد في التاريخ البشري، فهناك أمثلة أخرى تقوم بدور إيجابي، وتدعو دعوة مضادة، فهي أمثلة تمثل جانب الاقتداء الهادي إلى الجنة. واللافت للنظر أن تلك الطوائف كلها جاءت من الناحية الزمانية بعد الحنيفية الإبراهيمية، وفي هذا مزيد من الدعوة لاتباع الفطرة في الاهتداء إلى طريق الحق. تلك الثنائية التي تعكس لنا التضاد

القائم بين الحق والباطل -أي: بين آل فرعون من جهة وبين الطوائف المهتدية من جهة أخرى- تعضدها ثنائية أخرى يعكسها القبط وحدهم، وذلك في قوله -تعالى-:

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (سورة الزخرف: الآيات ٥٤،٥٦)

قال ابن كثير: "سلفاً لمثل من عمل بعملهم. . . ومثلاً، أي: عبرة لمن بعدهم"(١)

وقال البقاعي: "للآخرين الذين خلفوا من بعدهم من زمنهم إلى آخر الدهر، فيكون حالهم عظة لناس وإضلالاً لآخرين"(٢) .

إن هناك نوعين من العبرة يندرج كلاهما تحت مفهوم العبرة التاريخية في الجزء الأخير من قصة موسى وفرعون:

العبرة المحضة: وهي العبرة التي يجسدها خلود الآية العاشرة، حيث يصبح فرعون عبرة للأفراد والجماعات البشرية حتى قيام الساعة.

العبرة المتفرعة: وهي العبرة التي تتخذ شكل الثنائية المشتملة على متضادين هما أشبه بالنجدين في قوله -تعالى-:

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ (سورة البلد: الآية ١٠)

وهذا التضاد نجده على شكلين:

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٢٣٣.

(٢) نظم الدرر: ١٧/ ٤٥٢.

الشكل الأول: يقوم فيه جانب الباطل داخل المثال الفرعوني، بينما يقوم فيه جانب الحق خارج ذلك المثال، وتشكل دلالة لفظ "الآل" الرابط بين ما هو في الداخل وما هو في الخارج.

الشكل الثاني: ويقوم فيه الجانبان "الحق والباطل" داخل المثال الفرعوني، وذلك عبر مفهومي السلف والمثل.

المبحث الثاني: سياق التشابه السلوكي

لم تنته الصلة بين فرعون وبني إسرائيل بغرقه بل تستمر، وهذا الاستمرار يؤذن به قوله -تعالى-: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (سورة الإسراء: الآيتان ١٠٣،١٠٤)

و(من بعده) أي: من بعد غرقه، والضمير يعود إلى فرعون. (١)

فلماذا التأريخ بغرق فرعون للأمر بهذا السكن؟ لأن بني إسرائيل قد حملوا راية من رايات الباطل كان يجب أن تسقط بهذا الغرق، فخلفوه على هذا الباطل، فما هي حقيقة تلك الخلافة؟ إنها العلو في الأرض.

لقد نسب العلو السلبي لثلاثة أطراف في القرآن كله:

الطرف الأول: إبليس:

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (سورة ص: الآيات ٧٥،٧٧)

ويرى الزمخشري أن إبليس قد أجاب ضمناً عن السؤال الرباني له، فأجاب بأنه من العالين حين قال: إنه خير منه(٢)

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٣٨.

(٢) الكشاف: ٤/ ١٠٧.

الطرف الثاني: فرعون وقومه:

فقد ذكر العلو لفرعون وحده:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة القصص: الآية ٤)

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة يونس: الآية ٨٣)

وكذلك ذكر لقومه:

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة النمل: الآيتان ١٣،١٤)

فما قيل عند الحديث عن العبرة التاريخية يقال هنا في شأن العبرة للأفراد والجماعات، والجديد هنا هو اقتران هذا العلو بالفساد، وقد ورد هذا الاقتران في شأن فرعون في آية سورة القصص، وفي شأن قومه في آية سورة النمل.

الطرف الثالث: بنو إسرائيل:

وقد ورد علوهم صريحاً في سورة الإسراء:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الإسراء: الآية ٤)

وآراء المفسرين في تفسير هذه الآية على تباين وتعدد، حتى نجد ابن كثير يحمل على إسرائيليات هذا الباب عاتباً حتى على الطبري شيخه وشيخ المفسرين، ويبدو ابن كثير كالمتحفظ في تفسير هذا الفساد، وهذا التحفظ ينبئ عن إحساس بأن في الآية ما لا يفهمه. [١]

وإذا نظرنا في الآية وجدنا فيها ضروبا من التوكيد، فهي تذكر القضاء ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، قال الطبري:

"وأصل كل قضاء أمر الأحكام والفراغ منه، ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس القاضي بينهم لفصله بين الخصوم. . . وكذلك قوله -تعالى- ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: أعلمناهم بذلك وأخبرناهم به ففرغنا إليهم منه"[٢]

وقال الزمخشري:

"ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون "لتفسدن" جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن" [٣]

فكيف بقسم يحمل جوابه توكيدين: الأول بلام التوكيد، والثاني بنونه الثقيلة، نحن إذن أمام توكيد يعقب قسماً يشكل هو الآخر توكيداً، ويأتي هذا التوكيد لأن الأمر يخص بني إسرائيل تلك الأمة التي ساءت عقيدتها، فلذلك جاء هذا التوكيد المضاعف، ذلك أنه قضاء بما لم يقع بعد، فمتى

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٤٧ وما بعدها.

(٢) جامع البيان: ٢/ ٤٦٦.

(٣) الكشاف: ٢/ ٦٤٩.

سيقع وكيف؟ هذا ما ستأتي محاولة الإجابة عنه لاحقاً بحول الله.

إن هناك فرقاً مؤكداً بين علو إبليس وعلو كلٍّ من فرعون وقومه وبني إسرائيل، فعلو إبليس ليس علواً بشرياً، وكذلك فالسلوك الشيطاني يختلف عن السلوك البشري لدى كل من فرعون وبني إسرائيل، إلا أن اقتران الأطراف الثلاثة لا يشكل فخراً لأي منها فقد اقترن شر إلى شر وباطل إلى باطل. ولكن فيم هذا الاقتران؟ وما هي الدواعي الدلالية لهذا الربط؟ هذا ما سيأتي تبيينه بحول الله.

اللفيف ووعد الآخرة:

ليس الفساد في الأرض بخاتمة المطاف في شأن بني إسرائيل كما لم يكن خاتمة المطاف في شأن فرعون:

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (سورة الإسراء: الآية ١٠٤)

قال الرازي: "جئنا بكم لفيفاً من ههنا وههنا، واللفيف: الجمع العظيم من أخلاط شتى"[(١)]

وقال الجوهري: "واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى. . . وقوله -تعالى-"جئنا بكم لفيفاً" أي: مجتمعين مختلطين"[(٢)]

وجمهور المفسرين من القدماء والمحدثين على أن هذا المجيء باللفيف إنما هو يوم القيامة، وفي هذا الرأي نظر، فالآية تربط هذا الجمع بوعد

(١) التفسير الكبير: ٢١/ ٤١٦.

(٢) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، مادة (لفف).

الآخرة الذي نجده أيضاً في قوله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُاْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الإسراء: الآية ٧)

وهذا ربط واضح بين وعد الآخرة ودخول المسجد مما يؤكد وقوعهما معاً ضمن أحداث الدنيا، فلا يسعنا هنا إلا أن نؤيد الشعراوي الذي يرى أن الإفسادة الثانية هي ما يحدث الآن من دولة إسرائيل حيث يقول:

"جاء قوله -تعالى- "اسكنوا الأرض" هكذا دون تقييد بمكان معين لينسجم مع آيات القرآن التي حكمت عليهم بالتفرق في جميع أنحاء الأرض فلا يكون لهم وطن يجتمعون فيه كما قال -تعالى- "وقطعناهم في الأرض أمماً"، وقوله -تعالى-"فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً"، والمراد بوعد الآخرة الإفساد الثاني لبني إسرائيل"[1]

ويصدق ما ذهب إليه الشعراوي سياق الآيات:

﴿ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾(سورة الإسراء: الآيات ١٠٤، ١٠٧)

---

(١) تفسير الشعراوي: ١٤/ ٨٧٨٨.

ولنقف عند نقطتين:

النقطة الأولى: ورود ذكر إنزال القرآن وتنزيله في آيتين متتاليتين:

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾

فاللافت للنظر أن نزول القرآن قد ورد في صورتين: "الإنزال، والتنزيل". أما الإنزال فقد ارتبط بالحق، وأما التنزيل فقد ارتبط بالفرق والمكث، قال الراغب:

"والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقاً والإنزال عام" (١)

وهذا الذكر المتزامن للنزول والإنزال معاً في آيتين متتاليتين لافت للنظر، فالمقصود إذن الإشارة إلى النزول العام وإلى التنزيل المفرق بحسب الحوادث، قال القرطبي:

"قوله -تعالى-: "ونزلناه تنزيلاً" مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم أي: أنزلناه نجماً بعد نجم" (٢)

وإذا تأملت في الآيتين وجدت أن النزول قد ذكر مرتين والإنزال أيضاً قد ذكر مرتين، وقد فسر الطبري فرق القرآن بأنه تنزيله شيئاً بعد شئ.(٣)

---

(١) المفردات: مادة (نزل).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٤٠.

(٣) جامع البيان: ١٥/ ١١٨.

النقطة الثانية: فرق القرآن:

قال البغوي: "وقرآناً فرقناه: قيل معناه أنزلناه نجوماً لم ينزل مرة واحدة" [1]

وقال ابن فارس عن "مكث" إنها "كلمة تدل على توقف وانتظار" [2]

فيلحظ في الآية رقم "١٠٦" من سورة الإسراء أن دلالة الفرق والمكث والتنزيل تتشابه، وتدور كلها حول تطاول في الزمن، فأي زمن هذا الذي يرتبط بحكم النزول؟ قال الزركشي:

"وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها"[3]

وقال البغوي:

"يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال "وأنت حل بهذا البلد" فالسورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح. . . وكذلك نزل بمكة ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (سورة القمر: الآية ٤٥) قال عمر بن الخطاب كنت لا أدري أي جمع سيهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي –صلى الله عليه وسلم– يثب في الدرع ويقول "سيهزم الجمع ويولون الدبر" [4]

---

(١) معالم التنزيل: ٥/ ١٣٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة: مادة (مكث).

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٣٢.

(٤) معالم التنزيل: ٨/ ٤٠٢. وقد أورد البخاري جزءاً من هذا الحديث في صحيحه: كتاب =

إنه الإعجاز التاريخي الذي يدخل ضمنه الإخبار بهذا اللفيف المجموع الملعون.

لقد كان فرعون مثلاً في العلو تشبه به بنو إسرائيل، لذلك جاء التأريخ بغرقه لمخاطبة بني إسراءيل بأن يسكنوا الأرض، فهم خلفاؤه في العلو. وأقوال أولئك النفر من الأئمة الأعلام تسوِّغ لنا أن نقول إن تلك الآية قد اشتملت على حكم لم يتحقق إلا في هذا العصر، فلذلك اشتملت على ذكر لإنزال القرآن ونزوله في إشارة إلى سماوية القرآن من جهة وسماوية أحكامه من جهة أخرى، وكأن هذا النزول والإنزال نزول وإنزال للقرآن ثم لما في القرآن من أحكام، فقد أنزله ربه -تبارك وتعالى- "بالحق"، وكذلك فقد نزل هو "بالحق". ثم تأتي الآية التالية مشتملة على ثلاث دلالات متشابهة هي "الفرق، والمكث، والتنزيل" تشير إلى تطاول زماني في تنزل الحكم الذي تضمنه القرآن بتحقق وعد الآخرة، وتعقب الآيتين صورة بيانية لأهل الكتاب في حالة خرورهم ساجدين عند تلاوة القرآن عليهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ (سورة الإسراء: الآية ١٠٧)

ولسنا نبالغ لو ربطنا بين هذه الصورة البيانية وبين دخول المسلمين المسجد الأقصى، ذلك أن هناك عدة قرائن توحي بهذا الارتباط نوجزها في ما يلي:

القرينة الأولى: مبدأ التناسب بين الآيات، وهو مبدأ معين على فهم

= التفسير، باب "سيهزم الجمع ويولون الدبر"، ٣/ ٣٠١.

القرآن، وقد دار حوله تفسير الإمام البقاعي "نظم الدرر"، ولا مجال للإفاضة في هذا الاستعمال ههنا[1]، لكنني أشير إلى أن سياق الآيات يبدأ بذكر حديث دار بين موسى -عليه السلام- وفرعون، ثم يعقبة تأريخ بهلاك فرعون لأمر بني إسرائيل بأن يسكنوا الأرض، ثم ذكر لعدة جوانب ترتبط بطبيعة نزول القرآن يمكن إجمالها في أنه قد أنزل بالحق منجماً بحسب الأحداث، ثم تأتي بعد ذلك تلك الصورة البيانية التي تصف أهل الكتاب بالاستجابة الفورية لتأثير القرآن، وتلك الارتباطات إنما أتت من خلال مبدأ التناسب الذي يتيح لنا القول بالعلاقة بين تحقق الوعد الإلهي وبين إذعان طائفة من أهل الكتاب لصدقية ذلك الوعد.

القرينة الثانية: أن الربط بين تلاوة القرآن وبين أهل الكتاب يأتي عبر "إذا" التي يرى كثير من النحاة أنها تدل على المستقبل، وقال ابن هشام عنها:

"فالغالب أن تكون ظرفاً للمستقبل مضمنة معنى الشرط. . . ويكون الفعل بعدها ماضياً كثيراً ومضارعاً دون ذلك"[2]

وهذه حقيقة فإيلاء "إذا" فعلاً مضارعاً نادر جداً في القرآن على عكس إيلائها فعلا ماضياً فهو كثير جداً. والفعل المضارع يفيد وقوع الحدث في الحال أو الاستقبال، ولكن بالنظر إلى مستقبلية "إذا" فإن جميع الأفعال المضارعة المرتبطة بأهل الكتاب تدل على المستقبل، ويلحظ هنا

(١) انظر: الإتقان للسيوطي: ٦/ ١٨٣٦.

(٢) مغني اللبيب: ١/ ١٢٧.

تعدد الأفعال المضارعة التالية ل"إذا":

(يخرون، يقولون، يخرون، يبكون، يزيدهم)

وكل هذه الأفعال ترتبط بالفعل "يتلى" عبر "إذا"، وهذا الارتباط مؤذن بمستقبلية تلك الأفعال وبأنها تدخل في نطاق تقدم النزول على الحكم، وهذا ما يعضده ما أسلفنا ذكره من شأن نزول القرآن.

القرينة الثالثة: أحد تلك الأفعال المضارعة الفعل "يقولون" تلته جملة محكية بالقول وردت على لسان المتلو عليهم: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾، وذكر الوعد المفعول يعيدنا إلى قوله -تعالى-:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الإسراء الآية ٥)

وهذا التشابه اللفظي:

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

يوحي بتشابه دلالي، حيث لم يرد ذكر مفعولية ذلك الوعد مع وعد الآخرة المرتبط بإساءة الوجوه، ولا مع وعد الآخرة المرتبط باللفيف، بل يأتي هنا في صورة شهادة من هؤلاء الساجدين حين يدركون أن هذا القرآن قد أنزل بالحق ونزل بالحق. ولسنا نزعم ههنا أن هذه الآيات تنحصر في أهل الكتاب الذين سيشهدون العلو الثاني لبني إسرائيل الذي سيعقبه الدخول الثاني للمسجد الأقصى، بل نقول فقط إن هناك ارتباطاً بين هؤلاء الشهود الساجدين وهذا الدخول، فما يزال الإسلام منذ البعثة قبلةً لأهل

الكتاب يدخله المئات والآلاف منهم، ونقول ههنا: إن من ضمن هؤلاء المؤمنين بصدق وعد الله من سيكونون شهوداً على الدخول الثاني للمسجد الأقصى.

العاقبتان:

يتدرج العلو السلبي في القرآن، فيبدأ بعلو إبليس ثم يمر بنا بعلو فرعون مركز الضلال البشري، ليختم بعلو بني إسرائيل. وهنا ينتهي شأن العلو السلبي بعلو إيجابي:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الإسراء: الآية ٧)

وهذا يعني القضاء على علو بني إسرائيل. فإلى ماذا يشير الاسم الموصول "ما" في قوله –تعالى– ﴿ مَا عَلَوۡاْ ﴾ قال الطبري في تفسير هذه الآية:

"وليدمروا ما غلبوا عليه من بلادكم"[(١)]

وبلادهم هي الموضع الذي جئ بهم إليه لفيفاً الذي هو بحسب معطيات العصر الحديث "إسرائيل". ونلمس هنا فرقاً بين علو فرعون وعلو بني إسرائيل من جهة وهذا العلو الذي سيدمر دولة بني إسرائيل، فعلوهما علو سلبي وهذا علو إيجابي نتج عنه نهاية العلو الإسرائيلي بل ونهاية العمران الحضاري لدولة بني إسرائيل، تلك النهاية التي يشير إليها التتبير، ليظهر لنا تشابه بين عاقبة أمرهم وعاقبة أمر فرعون الذي قال عنه

(١) جامع البيان: ١٤/ ٥٠٤.

-تعـــــــــالى-: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٣٧)

فالتدمير هو التتبير، فاللفظان مترادفان، ولأنهما يشيران إلى نهايتين، فالترادف يدل على تشابه النهايتين، وهذا تشابه في المصيرين الدنيويين، أما تشابه المصيرين الأخرويين فيدل عليه قوله -تعالى- في الآية "٨٣" من سورة القصص:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة القصص: الآية ٨٣)

وتأتي عدة إشارات في القرآن الكريم لتدل على أن فرعون وبني إسرائيل أصحاب علو وفساد، نذكر منها ما يلي:

الإشارة الأولى تخص فرعون وهي قوله -تعالى- في سورة يونس:

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة يونس: الآية ٨٣)

وإنما نذكرها ضمن تلك الإشارات لأنها تحمل الرقم "٨٣" وهو نفس رقم آية سورة القصص، وهذا من عجائب أرقام الآيات في القرآن الكريم.

الإشارة الثانية: وتخص فرعون أيضاً، وهي قوله -تعالى- في الآية رقم "٤" من سورة القصص:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (ســـــــورة

القصص: الآية٤)

الإشارة الثالثة: وتخص بني إسرائيل، وهي قوله –تعالى– في الآية رقم "٤" أيضاً من سورة الإسراء:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ (سورة الإسراء: الآية ٤)

وتلك عجيبة أخرى من عجائب أرقام الآيات في هذه القصة، فالآيتان اللتان تتحدثان عن العلوين في سورتين مختلفتين تحملان الرقم "٤". وهذا التطابق بين رقمي الآيتين معضد بآية أخرى تخص فرعون وقومه، قال –تعالى– في سورة النمل:

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة النمل: الآية ١٤)

فهذه آية محرِّضة على النظر في عاقبة الفساد الفرعوني الذي ورد في صورة تؤكد انتماءه إلى فساد أكبر عبر "من" التبعيضية، الواردة في سورة القصص عند الحديث عن فساد فرعون: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وقد أسلفنا من قبلُ الحديثَ عن تأكيد فساد بني إسرائيل في صورة القسم المصحوب بالتوكيدين المسبوقين بذكر القضاء الإلهي: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ وآية سورة النمل دافعة نحو التفكر في عاقبة مطلق الفساد الذي يضم داخله فرعون وبني إسرائيل معاً مما يؤكد لنا –إضافة إلى مسوغات التشبيه السالف الحديث عنها– أن عاقبة الدولة العالية الباغية ستشبه عاقبة آل فرعون. ليس هذا فحسب، بل تتيح لنا اللغة الحاكية إدراك تشابه من

نوع آخر في عاقبة أسلاف بني إسرائيل في العلو من إبليس وآل فرعون: أما إبليس فقد أخرج من الجنة، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾.وهي آية تكررت في موضعين في تطابق تام (الآية ٣٤ من سورة الحجر، والآية٧٧ من سورة ص). وكأنها تشير إلى إخراجين سيشبهان هذا الإخراج.

وأما آل فرعون فقد أخرجوا من جناتهم وعيونهم، وقد سبق ذكر ذلك عند الحديث عن سياق الاستدراج: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٥٧) وتشابه مآلي العُلُوَّين السابقين يؤكد لنا أن عاقبة المفسدين من بني إسرائيل ستكون إخراجاً من الأرض التي علوا وأفسدوا فيها: (**فلسطين**).

إن تلك الإشارات الثلاث تنبئ عن نمط دلالي قرآني دقيق النسق أتاح لنا التعرف على التشابه بين العاقبتين الدنيوية والأخروية للشبيهين. ولم يبق سوى انتظار وقوع آخر أشكال ذلك التشابه وهو نهاية علو بني إسرائيل، فتشابه النهايتين متروك للأحداث، لكن كل شئ يقول: إن نهاية هذا العلو ستشبه نهاية ذاك.

الخاتمة

نتائج البحث:

نسبة لتعدد محاور البحث فإن ما توصلت إليه من النتائج سينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: العلو وأضداده:

أ/ لقد كان علو فرعون أول العناصر الدلالية المشار إليها في قصته مع موسى -عليه السلام-، وقد تبع ذلك ذكر لمجموعة من أضداد العلو مثلت مجموعة من العقوبات التي وقعت بفرعون عبر سياقات القصة المختلفة. ومن تلك الأضداد:

١/ التقاط آل فرعون لموسى -عليه السلام-: ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا ﴾ (سورة القصص: الآية ٨)، والالتقاط دال تقوم بينه وبين العلو علاقة متوترة بسبب التضاد القائم بينهما.

٢/ سجود السحرة الذي جاء التعبير عنه بالإلقاء: ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾(سورة الشعراء: الآية ٤٦)، وقد كان هذا السجود انكساراً للعلو باعتبار التوتر الناشئ عن التضاد الدلالي بين المدلولين.

٣/ غرق فرعون الذي مثل آخر أضداد العلو كما مثل خاتمة للتأله والعلو الفرعونيين، وقد غرق فرعون بعد أن بلغ قاع البحر المتحول إلى الطريق اليبس ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ (سورة طه: الآية ٧٧) فالجار والمجرور﴿ فِي ٱلۡبَحۡرِ ﴾ إذا أضيفا إلى عنصر اليبس أشاروا جميعهم إلى أن فرعون قد غرق وهو دون مستوى سطح

البحر، وقد مثلت تلك الدونية رمزية مضادة لدلالة العلو.

ب/ هكذا تبرز لنا اللغة الحاكية، العقاب الإلهي لفرعون على هذا العلو بأضداده الدلالية في مجموعة من الرمزيات تخفي وراءها مجموعة من التفاصيل التي تبناها سياق العبرة التاريخية الناشئ عن تحول فرعون إلى آية خالدة.

ج/ إن مسار التعارض القائم بين العلو وأضداده يفضي بنا إلى علو آخر هو علو بني إسرائيل، وقد عنَّ لنا هنا نسق من التشابهات بين فرعون وبني إسرائيل يفضي بنا إلى اعتقاد بأن نهاية دولة إسرائيل ستشبه نهاية فرعون.

د/ ومن ثم فإن المسار الذي اتخذته اللغة الحاكية يلفت نظر المتابع لتصاعدها إلى إشارات مستقبلية تَحقَّق بعضها، وقد وردت بشارات أخرى بالبعض الآخر الذي ننتظر تحققه الواقع بلا ريب.

هـ/ استعمل فرعون لغة يوحي ظاهرها بمقاومته للأمر الإلهي، وأبت دقائق التعبير اللغوي إلا أن تجعله من الخاضعين لله طوعاً أو كرهاً، ومن الساجدين لله طوعاً وكرهاً، فقد مثلت اللغة الحاكية بالنسبة لفرعون دور "اللغة الفاضحة".

القسم الثاني:نمطا اللغة الحاكية:

لقد تمثل وجود اللغة الحاكية في القصة في نمطين تعبيريين:

النمط الأول: هو التعبير المباشر القريب الذي يشير إلى تنامي الأحداث في ذكر مجرد لها، وهذا ما تجسد في السياقات الخمسة، وفي هذا النمط التعبيري كثير من العبر، وذلك على شاكلة قوله -تعالى-: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة النمل: الآية ١٤)، وهو تعبير ينطوي على أمر بالتفكر في مآل فرعون وأخذ العبرة من قصته في مراحلها المختلفة.

النمط الثاني: وهو الإيحاء والإيماء، وقد حوى هذا الجانب من العبر أكثر مما حواه النمط الأول، وههنا لؤلؤ القرآن المكنون المستودع في دقائق التعبير اللغوي، ومن أمثلة ما حواه هذا النمط من العبر مآل فرعون المذكور في شكل نكاية أجيب بها عن علوه إثر قوله للسحرة: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ (سورة طه: الآية ٧١). فيرد عليه القرآن في سياق عمومية العبرة، فلا يأتي الرد على فرعون بل يؤتى به في صورة غائب نفذ فيه الحكم الإلهي: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (سورة غافر: الآية ٤٦).

إن ما حواه هذا النمط من الإشارات ينبئ عن نسق من الارتباطات بين السياقات المختلفة التي تعود إلى أرومة معنوية واحدة. فبالرغم من اختلاف المقاييس الزمانية والمكانية بين قصة موسى وفرعون وبين الإشارات القرآنية لعلو بني إسرائيل مثلاً فإن العناصر الدلالية تشكل في نمطها المعجز رابطاً أتاح لنا التعرف على التشابه بين العاقبتين الدنيوية والأخروية للعالِيَين المأخوذين.

التوصيات:

لقد بدأ قدماء العلماء النظر في إعجاز القرآن منذ عهد مبكر، وقد توجهوا بهذا الإعجاز نحو اللغة ومع الاكتشافات العلمية ظهر للأوساط العلمية احتواء القرآن على إشارات علمية بشكل يثبت ربانية النص المقدس

لكل ذي بصر وبصيرة، فظهر الاهتمام بالإعجاز العلمي الذي التفتت إليه الأنظار مصروفة بشكل أو بآخر عن الإعجاز اللغوي، وإني لأدعو إلى زيادة تفعيل الجهود الناظرة في لغة القرآن، فإن كل ما هو قرآني إنما هو لغوي، ثم يتفرع إلى بقية العلوم بمختلف اتجاهاتها، وإنما ظهرت أشكال الإعجاز الخاصة بالعلوم المختلفة عبر لغة القرآن، ولذلك فإن النظر في تلك الأشكال إنما يبدأ بالنظر في اللغة. فإني أدعو من خلال هذا البحث إلى أن يعاد للإعجاز اللغوي ذلك البريق القديم، وَلْيُسخَّر هذا الإعجاز لخدمة كافة أشكال الإعجاز المكتشفة حديثاً، فإن البناء الشاهق لا يقوم إلا على أساس متين.

والله أسأل أن أنال أجر المجتهد، وبالله الحق أعوذ من أن أكون ممن قالوا في كتابه بما لا يجب أن يقال. فإن كان في هذا البحث من خير فهو خير القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، وإن كان فيه من خطل فمني ومن الشيطان، أجارنا الله من عاقبة السوء، ووقانا بحلمه غضبه، إنه مجيب قدير.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر،بيروت، ١٤١٥.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.
- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ١٣٨٧.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠.
- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠.
- جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢.
- الجامع الصحيح "صحيح البخاري"، تحقيق محب الدين الخطيب محمد

فؤاد عبد الباقي وقصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠.

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش،دار الكتب المصرية، القاهرة،الطبعة الثانية، ١٣٨٤.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧.
- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥.
- زاد المسير، أبو الفرج بن الجوزي، تحقيق عبد الرازق مهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢.
- سيكلوجية الإنسان المقهور، مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٥.
- الصحاح: تاج اللغ وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤.
- قصص الأنبياء والتاريخ، رشدي البدراوي،القاهرة، ١٩٩٨.
- الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي،

بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧.

- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار العارف، القاهرة.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحمبد، دار المعرفة، بيروت.
- المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد،دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
- مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف مجموعة من الكتاب، ترجمة رضوان ظاظا، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧.
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد السميع محمد أحمد، مكتبة المعارف،الرياض،الطبعة الأولى، ١٤٠٨.
- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة خميرية وسليمان مسلم الخرش، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١.
- المفصل في علم العربية، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وائل أحمد عبد

الرحمن، المكتبة الوقفية، القاهرة.

- ملاك التأويل، أحمد بن إبراهيم الغرناطي، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت،الطبعة الثانية، ١٤٢٨.
- نظم الدرر في تناسب للآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.